



قسم اللغة والأدب العربي

التخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

تمثّلات خطاب العنف في رواية "تحت وطأة الدّم" لمنى قرشوش

مذكّرة مقدّمة لاستكمال متطلبات الحصول على شهادة الماستر

إشراف الأستاذة:

إعداد الطالبتين:

❖ أ. شتيح صليحة

❖ بوزهر سميرة

❖ دايلي خولة

لجنة المناقشة:

رئيسا	جامعة أكلي محمد أولحاج _ البويرة	أ. لطرش صليحة
مشرفا ومقررا	جامعة أكلي محمد أولحاج _ البويرة	أ. شتيح صليحة
مناقشا	جامعة أكلي محمد أولحاج _ البويرة	أ. رومي سهى

السّنة الجامعية: 2025 - 2026



شكر وعرفان

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، أما بعد:
فالشكر أولو وأخير الله عز وجل وحده على نعمه التي لا تحصى، ومنها أن من علينا بإتمام
هذا العمل...

انطلاقاً من قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يشكر الناس من لا يشكر الله» واعترافاً منا
للأهل الفضل الذين علمونا الكثير، نتقدم بالشكر والثناء العاطر وجميل الوفاء لكل من أسدى
لنا علماً أو أفادنا بتجربة أو قدم لنا رأياً أو توجيهاً، ونخص بالذكر الأستاذة المشرفة التي
وجدناها نعم المرشد وخير المعين، والتي منحتنا الكثير من فتحها وصبرها، فلولا تفضلها
علينا لما استطعنا إتمام هذه المذكرة، فنسأل الله أن يبارك في أولادها ورزقها وعمرها.
كما نشني على بقية الأساتذة الأفاضل وأعضاء لجنة المناقشة وعمال الإدارة.

إهداء

أهدي ثمرة جهدي هذه لي:

من كانا سببا في وجودي والديا رحمهما الله وأسكنهما فسيح جناته....

لي كل من علمني حرفا أساتذتي الكرام....

لي كل أحبائي وأهلي وإخوتي ومن كان لي سندا...

لي الزوج الكريم وأبنائي: هبة، محمد، أنس

لي كل الأصدقاء والزملاء في العمل...

سميرة

إهداء

أهدي ثمرة جهدي واجتهادي إلى:
الوالدين الكريمين حفظهما الله وأدأ محمدا نورا لديني
لكل العائلة الكريمة من إخوة وأخوات..
إلى زوجي العزيز وابنتي أنا بيس..
إلى كل الأشخاص الذين أحمل لهم المحبة والتقدير.
ولكل من قدم لنا يد العون وساعدنا
في إنجاز هذه المذكرة، وأخص بالذكر
الأستاذة المشرفة "صليحة شتيح"

خولة

مَقْدَمَةٌ

مقدمة

تعدّ الرواية من أبرز الأجناس الأدبية التي استرعت اهتمام الدارسين منذ نشأتها، إذ حظيت بمكانة مهمة في الدراسات الأدبية والنقدية، وذلك بما تمتلكه من بنية سردية مفتوحة تستطيع اختزال أبعاد التجربة الإنسانية، والتفاعل مع القيم الثقافية والحضارية للمجتمعات. كما شكّلت متنفساً وجد فيه الكتاب فسحة واسعة لنقل قضايا الواقع والتعبير عن آلام الشعوب وآمالها، فاستطاعت أن تحاكي تفاصيل الحياة بلغة فنية تجمع بين الواقعيّ والمخيّل والمحسوس والمجرد في نسق إبداعيّ فريد.

ولم يكن المشهد الروائيّ الجزائريّ بمعزل عن هذا المسار، إذ تأثر منذ مطلع التسعينيات بالأحداث السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة التي وسمت هذه الفترة، وشكّلت منعرجاً حاسماً في تاريخ الجزائر المعاصر، وعملت على توجيه الرؤى الفنيّة نحو أفق إبداعيّ جديد يتماشى مع خصوصية الراهن.

وقد تمكّنت الرواية الجزائريّة المعاصرة من اختراق أنظمة المجتمع خلال هذه الفترة، وراحت تكشف عن طبيعة الصّراعات والمواجهات العنيفة بينها، ومن هنا يبرز خطاب العنف في الرواية الجزائريّة المعاصرة كموضوع مهم شحذ قريحة الكثير من الأدباء، الذين استطاعوا أن يغوصوا بإبداعاتهم في عمق الواقع، ويكشفوا حقيقته المتأزّمة، محاولين إعطاء ملامح عامّة عن خصوصيّة المجتمع الجزائريّ خلال العشريّة السّوداء، وهو ما لفت انتباهنا في رواية "تحت وطأة الدم" التي اخترناها لتكون مدونة لموضوع بحثنا، مُركّزين في ذلك على الكيفية التي يتجلى عليها خطاب العنف في الرواية، ومن هنا جاء بحثنا تحت عنوان:

تمثّلات خطاب العنف في رواية "تحت وطأة الدم" لمنى قرشوش

ومن أهم الدوافع التي حفزتنا على اختيار هذا الموضوع، نذكر الأسباب الموضوعية العلمية

المتتملة في:

■ الدور الكبير الذي تلعبه الرواية الجزائرية في الكشف عن خصوصية الواقع الجزائري وتحولاته المتتابة.

■ البعد الإشكالي الذي يرتبط بتيمة العنف في الدراسات الأدبية والنقدية.

■ الرهانات المعاصرة التي تطرحها الرواية الشبابية اليوم، لما لها من خصوصية في إضاءة قضايا الواقع وفق رؤية نقدية حديثة.

أما بالنسبة للدوافع الذاتية التي أسهمت في اختيارنا هذا الموضوع، فنجملها في الآتي:

■ شغفنا بمجال الإبداع السرد والروائي منه خاصة.

■ رغبتنا في تسليط الضوء على الكاتبة المبدعة "منى قرشوش" ابنة قسم اللغة والأدب العربي بجامعةتنا، وذلك تقديرا لموهبتها وتشجيعا لها في أولى تجاربها الروائية.

■ اهتمامنا الكبير بالبحث في تفاعلات الخطابات الإبداعية مع الذاكرة الجماعية، وخاصة ما ارتبط منها بفترة العشرية السوداء وما علق بها من وقائع قاسية في ذاكرتنا.

وقد استدعى منا البحث الانطلاق من إشكالية مركزية ترتبط بكيفية حضور خطاب العنف في

الرواية الجزائرية مفادها: كيف تمثل رواية "تحت وطأة الدم" خطاب العنف؟ وانطلاقا من هذه الإشكالية الرئيسية تفرعت مجموعة من الإشكاليات الثانوية نوردتها كآلاتي:

■ ماهي أشكال العنف؟ وكيف تتوزع في خطاب رواية "تحت وطأة الدم"؟

■ ما هي الأبعاد النفسية والاجتماعية التي يجسدها خطاب العنف؟

■ كيف تسهم تقنيات السرد في الكشف عن تجليات العنف ضمن خطاب الرواية؟

وبغرض الإجابة عن هذه الإشكاليات اعتمدنا في بحثنا على الجمع بين المنهج النفسي والمنهج الاجتماعي، إذ تتبع أهمية التوليف بين الآليات الإجرائية للمنهجين من كونها الأداة الأنسب لدراسة ظاهرة العنف في الخطاب الروائي، على اعتبار أنها ظاهرة تتداخل فيها الأبعاد الذاتية للشخصيات مع معطيات الواقع الاجتماعي.

وقد احتوت خطة بحثنا على مقدمة وفصلين مع خاتمة، جاء الفصل الأول موسوماً بـ "التأطير النظري للمفاهيم" قسّمناه إلى ثلاثة مباحث، المبحث الأول بعنوان: "في مفهوم الخطاب" خصّص لتحديد المفهوم اللغوي والاصطلاحي للخطاب، والمبحث الثاني جاء بعنوان: "العنف وتداعيات المصطلح" تناولنا فيه مفهوم العنف لغة واصطلاحاً، إضافة إلى مقارنته وفق المنظورين النفسي والاجتماعي، أما المبحث الثالث فقد جاء تحت عنوان: "أشكال العنف" ذكرنا فيه أشكال العنف المختلفة (الجسدي، النفسي، السياسي، الاجتماعي، الرمزي).

أما الفصل الثاني فقد وسمناه "تجليات العنف في رواية تحت وطأة الدم" غني بالجانب التطبيقي، وقد تضمّن ثلاثة مباحث، الأول يحمل عنوان: "تشكيلات العنف" وقفنا فيه عند الأشكال المهيمنة للعنف في الرواية، والمبحث الثاني جاء تحت عنوان: "الأبعاد النفسية والاجتماعية لخطاب العنف" رصدنا فيه تداعيات العنف من المنظور النفسي كالصدمة والإنكار والفقد والخدر العاطفي، إضافة إلى المنظور الاجتماعي كالتفكك الأسري وأزمة الهوية والصورة النمطية. أما المبحث الثالث المعنون بـ "التقنيات السردية لتمثيل خطاب العنف" فقد خصّصناه لعرض التقنيات السردية المستخدمة في تمثيل العنف كالسرد المتشظي والتباطؤ الزمني والسرد المتكرّر والوصف.

وقد استند هذا البحث في معالجة إشكالياته إلى جملة من المراجع نذكر منها: "ما وراء مبدأ اللذة" و"قلق الحضارة" لسيغموند فرويد (Sigmund Freud) و"أسئلة في علم الاجتماع" لبيار بورديو

(Pierre Pordius) و"نظام الخطاب و"أركيولوجيا المعرفة" لميشيل فوكو (Michael Foucault)

وغيرها.

وبما أنّ مسيرة الباحث لا تخلو من التّحديات والعقبات، فقد واجهنا مجموعة من الصّعوبات

نذكر أبرزها:

▪ ضيق الوقت المخصّص لإنجاز المذكرة، وهو ما شكّل تحدّيًا كبيرًا لنا في تنظيم العمل وإتمامه على الوجه الأمثل.

▪ كثرة المراجع وتداخلها مضامينها ممّا يؤدّي أحيانا إلى صعوبة في التنسيق بينها.

▪ ضخامة حجم الرّواية التي تُناهز 516 صفحة، مما يصعب حصر جوانبها وتغطيتها بشكل واف يتمشى مع حجم البحث المحدّد لنا في هذه المرحلة.

وختاما لا يسعنا إلّا القول إنّنا قد بذلنا قصارى جهدنا في محاولة الإلمام بكافة عناصر بحثنا،

ليكون هذا العمل ثمرة مجهود كبير استنفذ منا وقتا وجهدا، ومع إدراكنا بأنّ الكمال لله وحده فإنّنا

نأمل أن يشكّل هذا الجهد إضافة نافعة لزملائنا الطّلبة، وإن كنّا قد وُفقنا فذلك المُبتغى وإن كان غير

ذلك فحسبنا أنّنا اجتهدنا. كما لا يفوتنا في هذا المقام أن نتقدّم بالشكر والتّقدير للأستاذة المشرفة

"شتيح صليحة" التي تفضّلت بالإشراف على هذا البحث، وكذا لأعضاء لجنة المناقشة على التوجيهات

التي سيقدمونها بغرض تحسينه.

الفصل الأول

التأثير النظري للمفاهيم

المبحث الأول: في مفهوم الخطاب

1. المفهوم اللغوي
 2. المفهوم الاصطلاحي
- #### المبحث الثاني: العنف وتداعيات المصطلح

1. العنف في اللغة
 2. العنف في الاصطلاح
 3. العنف وفق المنظور النفسي والاجتماعي
- #### المبحث الثالث: أشكال العنف

1. العنف الجسدي
2. العنف السياسي والمؤسسي
3. العنف الاجتماعي
4. العنف النفسي
5. العنف الرمزي

تقديم:

يمثل الخطاب كل ما يُقال أو يُكتب أو يُعبر عنه، ويحمل في طياته أفكارا وتمثلات عن العالم، وحين نقول "خطاب العنف" فإننا نقصد الطريقة التي يتم بها تقديم العنف والتعبير عنه داخل النصوص الإبداعية والروائية خاصة، فهو المرآة التي تُظهر كيف يفكر الإنسان في العنف، أو كيف يحكي عنه سواء كان صريحا أو ضمنيا، ولهذا نروم بداية توضيح المفاهيم التي تتوزع عليها المصطلحات، لنتعرف على الكيفية التي يتجلى بها العنف داخل الخطاب، وكيف يعكس خطاب العنف واقع المجتمع وتمثلاته النفسية والاجتماعية من خلال الشخصيات.

يندرج العنف ضمن الموضوعات التي تهرّ استقرار المجتمعات الإنسانية، وهو قضية متجذرة في أعماق التاريخ منذ خلق الإنسان، وخير دليل على ذلك قضية "قابيل وهابيل" باعتبارها أول جريمة عرفها الإنسان مثلت مظهرا للعنف من خلال فعل القتل العمدي، وهي ظاهرة لها انعكاسات متعددة نفسية واجتماعية وسياسية ودينية وثقافية، وهي تؤثر على حياة الإنسان سلبا نظرا لتداعياتها الخطيرة، وهذا ما دفع الباحثين في عدة مجالات إلى محاولة التعرف عليها بالوقوف عند أبعادها وأشكالها والأسباب الخفية التي تولدها.

ويمارس العنف بصور مختلفة من مجتمع لآخر، حسب التنوع الثقافي والنظام السياسي، كما تتباين شدته حسب الأنظمة الاجتماعية وأنماط الحياة فيها، لذلك تختلف النظرة للعنف باختلاف الأزمنة والعصور والأفراد، كما تختلف تداعياته على مستوى النصوص الإبداعية حسب درجة الكثافة التي يوظف بها، وخاصة حين يتعلق الأمر بالخطابات الروائية الجزائرية المعاصرة.

المبحث الأول: في مفهوم الخطاب

تعدّ كلمة خطاب (Le Discours) من المصطلحات التي حظيت باهتمام بالغ من قبل الدارسين تعريفاً وتأطيراً، إذ تنفتح دلالتها على مداخل معرفيّة متشعبة، تتبع من توسّعها على مجالات البحث اللساني وكذا مجال تحليل الخطاب؛ حيث فرض مصطلح الخطاب حضوره بقوة في الدراسات الحديثة، وغداً عنصراً محورياً في الطروحات التي تُستتقّ بها النصوص الإبداعية على اختلاف أشكالها.

1. المفهوم اللغوي:

أولت كتب اللغة مفهوم الخطاب اهتماماً بالغاً؛ حيث جاء في "القاموس المحيط" أنّ «الخطب: الشّأن، والأمرُ صغرٌ أو عظمٌ، خطبَ الخطيبُ على المنبر خطبةً»¹ إذ يظهر أنّ الخطاب هو الكلام الذي يُلقى أمام الناس بهدف التأثير، فهو وسيلة الخطيب لجذب الانتباه، واستمالة المستمعين إلى الشّأن الذي يريد الحديث حوله أو التّركيز عليه.

وقد وردت كلمة الخطاب عند "ابن منظور" في "لسان العرب" ضمن مادّة (خ ط ب) على النّحو الآتي: "خطبَ فلانٌ إلى فلانٍ، فخطبَ وأخطبهُ أي أجابه، والخطابُ والمُخاطبةُ: مُراجعة الكلام، وقد خاطبهُ بالكلام مخاطبةً وخطاباً، وهما يتخاطبان، والخطبةُ مصدر الخطيب، وخطبَ خطيبٌ على المنبر واختطبَ يخطبُ خطبةً"²، يتّضح من هذا التعريف

¹ - محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج 1، تح: أبو الوفا نصر الهوريني، دار الكتب العلمية (د ط) لبنان، 1971، ص 108.

² - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، مج: 3، تح: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف (د ط) مصر، 1970، ص 463.

أنّ الخطاب يلعب دوراً أساسياً في عملية التّواصل باعتباره همزة الوصل بين المرسل والمرسل إليه، وقد عدّ "ابن منظور" الكلام خطاباً ومراجعة لما له من دور في تفعيل التّحاور بين الأفراد، كونه يمثل المادّة أو الوعاء الذي تُبنى فيه الأفكار والآراء، فتخرج على شكل قالب منظمّ يستقبله المخاطب.

بناءً على ما سبق، تحيل الدّلالة المعجميّة للفظة الخطاب إلى العناصر التي تؤسّس للفعل التّواصلّي في بعده النّفعيّ، إذ ضمّ المدخل اللغويّ للجزر (خ ط ب) دلالة التّوجه نحو الغير وتقديم فحوى رسالة ما لغرض تأثيري، تقوم على تحصيله عمليات التّحاور والتّواصل بين الأفراد.

وقد حظي مصطلح الخطاب بحضور ملفت في القرآن الكريم، إذ وردت لفظة الخطاب في عدّة مواضع، مثل قوله تعالى في حديثه عن النبي داوود عليه السّلام: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلَ الْخِطَابَ﴾ سورة ص، الآية: 20. فقد منح الله عز وجلّ نبيّه داوود _ إضافة إلى تقوية ملكه وملكة العقل والفهم لديه _ القدرة على الإتيان بالكلام البليغ الذي بموجبه يستطيع أن يفصل بين الحق والباطل، وهو ما أورده "ابن كثير" في تفسيره حين ذكر أنّ فصل الخطاب هنا يرتبط بمنح النبي داوود القدرة على «الفصل في الكلام وفي الحكم»¹ بين المتنازعين.

¹ _ إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 7، تح: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة (د ط) مصر، 1999، ص 59.

وفي هذا الصدد ربط "الزمخشري" الخطاب بالإبانة حين جعله «البين من الكلام، الملخص الذي يتبينه من يُخاطَبُ به ولا يلتبس عليه»¹ وهذا يعني أنّ الخطاب هنا يكتسي صفة البلاغة، فيكون كلاماً واضحاً يتميز بالاختصار المفيد، ما يجعله سهل الفهم لا يختلط معناه على المخاطَب؛ فكلما تحققت خاصية الإبانة اقترب الكلام من جهة السلاسة والوضوح ووصول المقصد.

وفي موضع آخر يرد مصطلح الخطاب في توجيهات الله عز وجل لنبيه نوح عليه السلام حين يقول: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ سورة هود، الآية: 37. ليحمل الفعل (تخاطبني) دلالة الطلب والمراجعة من خلال التوجه إلى الله بالكلام وطلب إمهال الكافرين من قومه وعدم إغراقهم، وهنا يرتبط الخطاب بوضوح بفعل القول والتواصل الذي أشرنا إليه سالفاً ضمن الدلالة المعجمية للكلمة.

ويمكن أن نُجمل القول في أنّ الخطاب هو عبارة عن كلام أو رسالة بين متحاورين أو أكثر له غاية معينة، وهو يلعب دوراً أساسياً في عملية التواصل والإقناع والتأثير في المتلقي وفق السياق الذي يُقال فيه، ليشكّل بهذا كلمة جامعة للحديث والرسالة والكلام والكتابة.

¹ - أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج 1، دار الفكر، ط1، لبنان، 1978، ص 81.

2. المفهوم الاصطلاحي:

تعددت التعريفات التي حاولت مقارنة مفهوم الخطاب من الناحية الاصطلاحية، إذ حظي باهتمام الكثير من الباحثين، نجد من أبرزهم "زيليك هاريس" (Harris Zellig) الذي عرّفه على أنه «ملفوظ طويل، أو هو متتالية من الجمل تكوّن مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية، وبشكل يجعلنا نطل في مجال لسانيّ محض»¹. نفهم من هذا التعريف أنّ "هاريس" ينظر إلى الخطاب على أنّه مجموعة من الجمل المنظّمة والموزّعة بشكل مدروس، حسب الأفكار أو المعلومات التي تتضمنها، وذلك وفق ترتيب واضح ومنطقي؛ بحيث تجمعها علاقة مترابطة فيما بينها، ليتجلى من خلال هذا الطرح تصويره التوزيعي لدلالة الخطاب.

أمّا "ميشيل فوكو" فيرى بأنّ الخطاب هو «منظومة من القواعد والممارسات التي تُنتج المعرفة داخل المجتمع، وتُحدّد ما يجوز قوله والتفكير فيه»²؛ حيث يقدّم تصورا خاصا لمفهوم الخطاب ينأى عن التحديد اللسانيّ الذي يركّز على جانبه التركيبيّ وإطاره التّوصليّ، فهو يشير إلى ضرورة ربط الخطاب بأنظمة المجتمع باعتبارها المحدّد والمتحكّم في إنتاج الخطابات، وكذا في تنظيم أفكار الأفراد ورؤيتهم.

¹ – Harris, Zellig, Discours Analyse, lanuage, vol 28, N 1, USU , 1952, p 11

* نركّز في هذا الموضوع من البحث على تعريف "ميشيل فوكو" للخطاب باعتبار أنّ طروحاته حول مفهوم الخطاب تتماشى مع التّيمة الكبرى التي يتمحور حولها موضوع دراستنا، وتضيء الجوانب التي يتوزّع عليها حضور العنف بأشكاله المختلفة في أحداث الرواية، ولهذا اقتصرنا على ما قدّمه في هذا المجال.

² – ميشيل فوكو، نظام الخطاب، تر: محي الدّين صبحي، دار الفكر، ط1، سوريا، 1984، ص13.

يشكّل الخطاب وفق هذا الطّرح نسقا خاصا، يتحرّر من قيود اللغة الشّكليّة وخصائصها الدّاتيّة، ويتشكّل في ظلّ منظومة مرجعيّة تبلور طبيعة استعماله في سياق إنتاج المعرفة، وتمير المقاصد السّلطويّة التي تمارس ضمن البنى الاجتماعيّة. ولهذا نجد أنّ "فوكو" يميّز بين الخطاب باعتباره كيانا معرفيا ينتج حقيقة معينة حول موضوع ما، وبين الخطاب بوصفه شبكة من العلاقات الثّقافيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة التي تتجلّى في اللغة، وتكشف مواطن الهيمنة والقوة داخل المجتمع¹.

وانطلاقا من هذه النّظرة يتعمّق تحديد "فوكو" لدلالة الخطاب من خلال وقوفه عند مفهوم الممارسة الخطابية، التي يقصد بها تلك القواعد الموضوعيّة التي تضبط عمليّة إنتاج الأقوال، وكذا طريقة استعمالها وتداولها داخل حقل معرفيّ ما²، فالأفراد قبل أن ينتجوا خطاباتهم التّواصليّة يحتكمون سلفا إلى تلك التصورات أو التمثيلات التي تنتظم وفقها معارفهم حول الأشياء، ومعتقداتهم التي يسلمون بها.

نلاحظ أنّ مفهوم الخطاب عند "فوكو" يرتبط بخصوصيّة الأنظمة المسؤولة عن توليده، إذ لا يمكن النّظر إليه على أنّه مجرد وسيلة للتّعبير عن الواقع ورصد تمفصلاته، بل ينبغي الجزم بأنّ له دورا مهما في تشكيل هذا الواقع وبلورته، وقد أقام تحديده هذا على القواعد التي تنظّم استعماله جاعلا منها بنية سلطوية تتحكّم فيما يقال وكيف يقال، لتمثّل بهذا نظاما فوقيا ينتج الخطاب ضمن الحقول المعرفيّة التي ينتمي إليها كالقانون والأدب والتعليم والتاريخ

¹ _ ينظر: ميشيل فوكو، أركيولوجيا المعرفة، تر: سالم يافوت، المركز الثّقافيّ العربيّ، ط 1، المغرب، 1986، ص 56.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 85.

فيما عبّر عنه بالحقل المعرفي، ومن هنا يتجلى التمايز بين الخطاب السياسي، والخطاب الاجتماعي والخطاب الثقافي والخطاب التاريخي وغيره.

وتجدر الإشارة إلى أنّ ارتباط الخطاب بالسلطة عند "فوكو" هو تأكيد منه على أنّ ما ينتجه الناس من كلام يوميّ ضمن مجالات حياتهم المختلفة لا يعدو أن يكون تمثلاً مباشراً لتوجيهات السلطة التي تنظّم عمليات القول، وهذا ما جعله يؤكّد على أنّ هذا النوع من الخطابات يمكن أن يشكّل عنفاً رمزياً كونه يفرض رؤياً معينة، ويمرّرها ويجعلها مقبولة دون أن يلجأ إلى أشكال تعنيفيّة أخرى مباشرة كالقتل والسجن وغيرها¹، وهذا ما يثبت العلاقة الفوقيّة التي تمارسها أشكال السلطة على الخطابات لتصبح في حدّ ذاتها نوعاً من الممارسة السلطوية القسريّة.

بناءً على ما سلف، يتّضح أنّ مفهوم الخطاب عند "فوكو" يقوم على نظرة تحديثيّة تخرجه من سياقه اللغوي المحض إلى سياقه الاجتماعيّ؛ حيث يتداخل مع مجموعة من العناصر التي تحدّد مفهومه ومجال اشتغاله فهو وسيلة لإنتاج المعرفة، ويخضع للقواعد التي تحددها المنظومات الاجتماعية، كما يصوغ الواقع، ويعمل على تمرير المقاصد الخاصة بكل حقل معرفي ينتج في ظلّه، ليمثّل في النهاية سلطة يمكن لها أن تنتج عنفاً غير مباشر يمارس على الأفراد من خلال اللغة. وتشكّل هذه الحلقة التفصيلية لمفهوم الخطاب المدخل الذي سنستند إليه في استنتاج خطاب العنف ضمن مدونتنا محل الدراسة.

¹ _ ينظر: ميشيل فوكو، المراقبة والمعاقبة، تر: جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، ط1، لبنان، 1990، ص 35.

المبحث الثاني: العنف وتداعيات المصطلح

تعتبر ظاهرة العنف (La Violence) حتمية ملازمة للواقع الاجتماعي، فقد عرفتها مختلف المجتمعات عبر الزمن، وبمختلف الدرجات والصفات والأشكال، فهي ظاهرة مركبة من عدة أبعاد وجوانب، وهذا ما دفع الدارسين والباحثين لرصد مفاهيمها وأشكالها، محاولين الإحاطة بمختلف التداعيات التي تنتجها، وفي هذا الصدد سنتطرق لتوضيح بعض المفاهيم المتعلقة بهذا المصطلح وفق ما يخدم جوانب البحث ويثري عناصره التطبيقية لاحقاً.

1. العنف في اللغة

تناولت كتب اللغة مصطلح العنف في العديد من المواضع، نذكر منها ما ورد في "المعجم الوسيط" الذي يقدمه كالاتي: «عُنْفَ به وعليه عُنْفًا وَعُنَافَةً: أَخَذَهُ بِشِدَّةٍ وَقَسْوَةٍ وَلَامَهُ، فَهُوَ عَنِيفٌ (ج) عُنْفٌ. أَعْنَفَهُ، عُنْفَ به وعليه، عَنَّفَهُ، أَعْنَفَهُ، اعْتَنَفَ الأمر: أَخَذَهُ بِعُنْفٍ وَأَتَاهُ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ بِهِ، وَالشَّيْءُ: كَرِهَهُ، يُقَالُ: اعْتَنَفَ الطَّعَامُ فَلَانَ وَالْمَجْلِسَ: تَحَوَّلَ عَنْهُ»¹ يتّضح من خلال هذا التعريف أنّ العنف يعكس حالة من التحوّل والخروج عن الطبيعة المألوفة التي جُبِلَ الإنسان عليها، فبما أنّه يمثّل الشدّة والقسوة فهو عكس الرّفق الذي يعدّ الأصل في السلوكات والمعاملات.

كما يقدّم "المعجم الفلسفي" مصطلح العنف على أنّه «مضاد للرفق، ومرادف للشدّة والقسوة، والعُنْفُ هو المتّصف بالعنف، فكلّ فعل شديد يُخالف طبيعة الشّيء ويكون مفروضاً

¹ - إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ج 1، مجمع اللغة العربية، ط 2، مصر، (د ت) ص 283.

عليه من الخارج فهو بمعنى ما فعل عنيف، والعنيف أيضا هو القوي الذي تشتد صورته بازدياد الموانع التي تعترض سبيله كالرياح العاصفة والثورة الجارفة»¹، وهذا يعني أنّ العنف يتضمن معاني سلبية ترتبط بالشدة في الشيء، والقوة التي تجاوز الاعتدال أو الحد المطلوب في التعامل مع الأمور، فكلما ازدادت هذه القوة ازداد معها العنف، وتصف من يمارسها بالشخص العنيف.

وتُحِيل كلمة العنف في اللغة الفرنسية (Violence) المنحدرة من الأصل اللاتيني (Violentia) إلى كلّ «انتهاك أو أذى يلحق بالأشخاص والأشياء»²، فيحدث أثرا يتأذى منه الآخرون، وبالتالي يعدّ هذا الفعل العنيف انتهاكا لحقوقهم وخصوصيتهم، وتجاوزا للحدود التي ينبغي أن يقف عندها الشخص في التعامل مع الأشخاص والأشياء، وهنا يغيب اللين وتنمحي معاني الرفق لتحلّ محلّها دلالات الخشونة والقسوة والاعتداء ممّا يشكّل الحقل المعجمي الذي يؤطر دلالة العنف من الناحية اللغوية.

2. العنف في الاصطلاح:

يعدّ العنف من المفاهيم المتشعبة التي يصعب جمع كلّ الصور والأبعاد المتفرعة عنها، وترجع هذه الصعوبة إلى توزّع المصطلح بين حقول معرفية متباينة، بحيث يعرفه كل

¹ - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، ج 2، دار الكتاب اللبناني

(د ط) لبنان، 1982، ص112.

² - المرجع نفسه، ص120.

مجال انطلاقاً من خصوصية بحثه واهتمامات الدارسين فيه، وسنحاول تأطير المصطلح بما يخدم جوانب بحثنا.

يجعل "أندري لالاند" (André leland) العنف مرادفاً لكلمة الأذى، ويعرفه على أنه سمة ظاهرة يتم بموجبها إلحاق الأذى بالنفس أو بالآخرين، وهي تتجلى من خلال الاستعمال غير المشروع للقوة، ما يستدعي الاحتكام إلى القوانين من أجل مواجهتها¹، فالعنف يحظر باعتباره أحد أشكال الممارسات غير المقبولة، التي تضرّ بالطرف الذي تمارس عليه، بحيث يحتاج إلى توفير الحماية من طرف القوانين الوضعية التي تعاقب على ما ينجم عن العنف من تجاوزات على حقوق الذات أو الغير، وفي هذا إشارة إلى أنه من السلوكيات المشينة التي ترفضها المجتمعات، والفترة السليمة.

ويرى "ماجد الغرباوي" في كتابه "تحديات العنف" أن العنف «يشمل ارتفاع الصوت والخشونة في المحاور كما يشمل استخدام السلاح والبطش، وهو عكس المسالمة، ومثاله ما يمارسه البعض (الإنسان، السلطة، الدولة، الحزب، الحركة...) من خشونة وعنف في سلوكه وأخلاقه»²، إذ يبسط هذا الطرح السلوكات التي تتجلى فيها مظاهر العنف أثناء المعاملة كاللجوء إلى الضرب _ سواء كان باليد أو الركل أو استخدام السلاح _ قصد الأذية في ظل غياب ملكة الحوار والنقاش الهادف، فالشخص الذي لا يستطيع المحاوره أو النقاش مع

¹ - ينظر: أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تع: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، ط 2، لبنان_فرنسا، 2001، ص 1554، 1555.

² - ماجد الغرباوي، تحديات العنف، دار العارف للطبوعات، ط 1، لبنان، 2009، ص 4.

الآخر بشكل لئِن، يفتقر إلى الكفاءة التّواصلية السّليمة، ومن ثمّ نجده يلجأ إلى استخدام العنف من خلال رفع الصوت والخشونة وانتقاء الألفاظ المسيئة للوصول إلى غايته وتحقيق مآربه بشكل عنيف.

وإذا كانت تلك المظاهر التي تعكس فعل العنف، فإنّه تجدر الإشارة إلى كونها تلعب دوراً كبيراً في تدمير الأشخاص والمجتمعات، نتيجة لما تحدثه من تسلّط وتهديد وإيذاء _ سواء من قبل طرف واحد أو مجموعة أفراد أو هيئات _ يُحدث زعزعة على مستوى الأخلاق والقيم والمبادئ السليمة التي تقوم عليها المجتمعات المتحضّرة.

ويمكن القول إنّ المفهوم الاصطلاحيّ للعنف لا يقتصر على الأذى الماديّ فقط، بل يتعدّاه إلى كلّ ضرر (مادي/ معنويّ) يلحق الأشخاص أو الأشياء على أيّ هيئة كان، وهو ما يعكس التداخل الحاصل في المفاهيم التي يتوزّع عليها العنف، كونها ترتبط بالأشكال المتعددة التي ينقسم إليها (الجسديّ، النّفسيّ، الاجتماعيّ، الرمزيّ، المؤسّساتي) والتي سنفصّلها في موضع لاحق من البحث.

ولا يفوتنا في هذا السياق أن نشير إلى أنّ دلالة "خطاب العنف" تنبع من تضافر مفهومي الخطاب والعنف، إذ يستمدّ خطاب العنف معناه من بعده التركيبي الذي يجمع بين قدرة اللغة على صياغة الواقع، وإعادة تشكيله بما يفرض نوعاً من القوة والهيمنة والسلطة على الأفراد والمنظومات الاجتماعية والفكرية. فالعنف يمثّل المادة الخام التي تنهل منها الأساليب اللغوية وترسم من أشكالها وتداعياتها خطاباً فنياً يخفي أكثر ممّا يعلن، ويضمّر أنساقه ومقاصده التي تحتاج إلى قارئ خبير يكشف عنها ويستتطق دلالاتها.

3. العنف وفق المنظور النفسي والاجتماعي:

لا يتعمق فهم ظاهرة العنف إلا من خلال استكشاف دلالاتها النفسية والاجتماعية؛ فالعنف ليس مجرد فعل مادي ملموس مثل الضرب أو التدمير، ولا مجرد فكرة أو نية منفصلة عن سياقها أو أسبابها أو نتائجها، إذ هو شبكة معقدة من عوامل نفسية داخلية وعوامل اجتماعية خارجية، تؤثر على الفرد وعلى بنيته الذهنية والانفعالية، وتقود سلوكاته اليومية.

كما تفرض طبيعة البحث في الرواية الجزائرية المعاصرة التي تناولت العنف في سياقات تاريخية محددة كالعشرية السوداء الاهتمام بهاذين المنظورين معاً، فالشخصيات الروائية _ كالأفراد الواقعيين _ لا تُقدم على العنف أو تتلقاه إلا عبر شبكة من الدوافع النفسية والاجتماعية وهي العوامل التي يجب إبرازها لفهم كيف تُمثل هذه الشخصيات داخل النص الروائي، وكيف تتحول من شخصيات عادية متزنة إلى منتقمة أو ضحية، لذلك نسعى في هذا السياق إلى تقديم العنف من منظور نفسي واجتماعي ليكون بمثابة أرضية تمهّد للكشف عن مظهرات العنف في الجانب التطبيقي.

أ. المنظور النفسي:

أولت الدراسات النفسية ظاهرة العنف اهتماماً بالغاً لما لها من تأثير في سيورة نموّ الأفراد وتقدّم المجتمعات، وبما أنّ العنف سلوك يحمل دلالات سلبية على مستوى نتائجه والآثار المترتبة عنه، فقد سعى الدارسون إلى البحث عن تفسير هذا السلوك من خلال ربطه بالدوافع التي تحفز الفرد على اتخاذ العنف سبيلاً للتعبير عن مشاعره أو رغباته.

إنّ ارتباط الفعل العنيف بصاحبه من باب السببية، يجعل العلاقة بينهما تلازميّة، إذ تتحمّل الذات الفاعلة مسؤولية الممارسات العنيفة التي تنجزها، وهذا ما يجعل العنف يصنّف ضمن الميول الطبيعية في الإنسان، التي تنشط تنبّعاً للحوافز التي تستثيرها، وهو ما عبّر عنه علم النفس بالعدوانية (الهجومية)¹، أي أنّ العنف وفق هذا المنظور يحضر باعتباره بنية نفسية داخلية تحتاج إلى توافر أسبابها لتنفجر على شكل تصرفات هجومية، تتّصف بالعدوانية تجاه ما يعترض سبيلها.

ويرى "سيغموند فرويد" أنّ العدوانية هي «تعبير ظاهريّ عن قوّة هادمة في الإنسان إن لم تظهر في العالم الخارجيّ ترتدّ على نفسه داخليّاً»² أي أنّها سلوك يُعبّر به الفرد عن مكنوناته الداخليّة، والتي تكون نتيجة غضب أو كراهية أو غيرة أو انفعال تجاه موقف ما، وبطبيعة الحال يكون هذا الفعل مؤد للذات وللغير معا.

وفي السياق نفسه يحضر العنف باعتباره ظاهرة معقدة تخضع لخصوصية البناء الذهنيّ للأفراد، ومَرَد ذلك إلى أنّ الجهاز النفسي يتكوّن من مجموعة من الطبقات المتفاعلة فيما بينها، وأنّ الغرائز تمثّل القوّة المحرّكة للسلوك البشري، وهي تنقسم إلى نوعين: غرائز حياة وغرائز موت، وهذه الأخيرة يعبر عنها "فرويد" باسم (ثاناتوس) ويرى بأنّها تمثّل نزعة تدميرية موجّهة في الأصل نحو الذات، لكنّها قد تنقلب نحو الخارج فتصير عدوانية موجّهة

¹ - ينظر: هه تاو كريم، ظاهرة العنف الأسري دراسة ميدانية في مدينة أربيل، مطبعة الثقافة، ط 2، العراق، 2014، ص 26.

² - سيغموند فرويد، قلق الحضارة، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة، ط 2، لبنان، 1979، ص 101.

ضد الآخرين لإلحاق الأذى بهم¹، ويُقصد بهذا أنّ النفس الإنسانية تواجه صراعاً دائماً مع حالات متناقضة (موت/ حياة، خير/ شر، ماضي/ حاضر) وبما أنّ النزعة التدميرية شيء ثابت في تركيبها فهي في حالة صراع دائم بين تجسيد رغباتها على ذاتها أو على الآخرين، وهو ما يجعلها تواجه مشاعر مضطربة تتراوح بين التأمل والتردد والاندفاع.

وقد تطوّرت في منتصف القرن العشرين نظرية نفسية مهمة حول العلاقة بين الإحباط والعدوان، قدّمها "جون دولارد" (John Dollard) وزملاؤه في جامعة ييل (Yale) تقوم هذه النظرية على فرضية مفادها أنّ العدوان ينشأ دائماً عن إحباط، وأنّ الإحباط يولّد حتماً نزعة عدوانية، وهذا يحدث عندما يشعر الفرد أنّ هناك عائقاً (الفقر، القمع السياسي، التمييز، الفشل، العجز...) يعرقل تحقيق هدف من أهدافه أو رغبة من رغباته، فيصبح منزعاً ومتوتراً ممّا يجعله يشعر بالضّغط فينفجر على شكل أسلوب عدواني يترجم في شكل من أشكال العنف²، الذي قد يتوجّه نحو العالم الخارجي أو نحو الذات حسب ما ذهب إليه "فرويد" سابقاً.

عطفاً على ما سبق، يمكن تفسير جزء من العنف الذي اجتاحت المجتمع الجزائري خلال العشرية السوداء على أنّه تعبير عن إحباط جماعي متراكم، نتيجة الأزمة الاقتصادية والسياسية التي كانت تعيشها البلاد، ما أدّى إلى انفجار هذا الإحباط في صورة عنف جسدي مباشر ضدّ الدولة والمجتمع على السواء (ظهور الجماعات المسلّحة) وهذا ما تُقدّمه الرواية

¹ - ينظر: سيغموند فرويد، ما وراء مبدأ اللذة، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة، ط 2، لبنان، 1983، ص 89.

² - ينظر: جون دولارد وآخرون، الإحباط والعدوان، تر: محمود عبد القادر، دار المعارف، ط 1، مصر، 1972، ص 23.

الجزائريّة المعاصرة _ التي كتبت حول تلك المرحلة _ حيث تظهر لنا شخصياتها وهي تعاني من إحباط عميق، سرعان ما تحوّل إلى عدوانية موجّهة إلى الذات أو إلى الآخر، ممّا يعكس مدى فاعليّة هذه المقاربة النفسيّة في الكشف عن تمثّلات العنف ضمن خطاب مدوّنتنا محل الدّراسة.

ب. المنظور الاجتماعيّ:

يعدّ العنف ظاهرة اجتماعيّة مركّبة تشمل أبعادا ثقافيّة وفكريّة وسياسيّة متباينة، ومن هنا تتبع الحاجة إلى دراسة العنف باعتباره نتيجة لممارسات جماعيّة تعكس تفاعل الأفراد داخل الجماعات والهياكل الاجتماعية التي يعيشون ضمنها. وفي هذا الصّدد ينتقل علم الاجتماع بمفهوم العنف من دائرة الفرد إلى البنية الاجتماعيّة، فيعرّفه "بيير فيو" (Pierre Viau) بأنّه «ضغط جسديّ أو معنويّ ذو طابع فرديّ أو جماعيّ، يُنزله الإنسان بالإنسان»¹؛ حيث يكون العنف _ حسب المنظور الاجتماعي _ عملا فرديا أو جماعيا، تمارسه مجموعة من الأفراد تشترك في الأسباب والدوافع، ويتم توجيهه نحو طرف آخر قد يكون فردا أو جماعة أو ممتلكات أو أشياء مادية.

يحضر العنف وفق المنظور الاجتماعيّ كظاهرة تحمل وجهين متقابلين، إذ نجد العنف الذي يمارسه المجتمع _ باعتباره منظومة تؤطر حياة الأفراد وتضطلع وجودهم الجمعيّ _ من خلال فعل الإكراه والإلزام الممارسين على الأفراد بغرض جعلهم يمتثلون للقيم والمعايير

¹ - بيير فيو، العنف والوضع الإنساني، ضمن كتاب: المجتمع والعنف، مجموعة من الاختصاصيين، تر: إلياس زحلاوي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط 1، لبنان، 1985، ص 78.

الاجتماعية السائدة. وفي المقابل نجد العنف الذي يمارسه الأفراد من خلال رفضهم الانقياد لذلك الإكراه الاجتماعي، فيخرجون عن القواعد ويخترقون المعايير والمحظورات التي وضعها المجتمع¹، وهنا يظهر العنف كفعل ذو وجهين متصارعين يسعى كل منهما إلى تعنيف الآخر.

وقد أقرّت الماركسية بأنّ العنف مرتبط بالصّراع الطبقي إذ ترى «أنّ المجتمع الرأسمالي يقوم على استغلال طبقة لطبقة أخرى، وأنّ العنف متجذّر في هذه البنية الطبقيّة ذاتها. الطبقة المهيمنة تستخدم العنف، سواء كان قانونيًا (عبر الشرطة والجيش) أو رمزيًا (عبر الإعلام والثقافة) للحفاظ على امتيازاتها، بينما تلجأ الطبقة المستغلّة إلى العنف الثوري لتحطيم هذه البنية وإقامة نظام جديد»² وهذا يعبر عن وجود فجوة داخل تركيبة المجتمع حين تسعى الطبقات إلى الاحتكار والسيطرة والهيمنة، ونكون أمام صراع خفيّ ومعلن في الوقت ذاته، ينتج هذا التّفاوت الطبقي بسبب شعور أفراد الفئة المستضعفة بالظلم، ممّا يولّد العنف كاستجابة مباشرة لذلك الصّراع.

وتشير العلاقة بين الدّين والعنف جدلا واسعا في الدّراسات الاجتماعيّة، فمن جهة تحمل الأديان قيما إنسانيّة وروحيّة تدعو إلى السّلام والعدل والرّحمة، ومن جهة أخرى كثيرا ما استُخدمت النّصوص الدّينيّة عبر التّاريخ لتبرير العنف وإباحة الحروب والقتل والقمع. وهو

¹ _ ينظر: المرجع السابق، ص 83.

² - كارل ماركس، فريدريك أنجلز، البيان الشيوعي، تر: إلياس شاهين، دار النّقد، ط 1، موسكو، 1986، ص52.

ما مارسه سلطة الكنيسة على مدار عقود من الزمن على من خالف تعاليمها، ويمارسه الفكر اليهودي إلى يومنا هذا على الأراضي الفلسطينية المحتلة، كما ينقل لنا التاريخ الإسلامي أحداثاً عنيفة متعددة منها ما ارتبط بالصراع حول الخلافة بين الشيعة وبني أمية، ومنها ما امتد إلى أحداث العشرية السوداء أين وظفت النصوص الدينية في سياقات اجتماعية وسياسية معينة، فاستخدم الخطاب الديني لتبرير العنف ضد الدولة والأفراد تحت شعار الجهاد في سبيل الله، ومن هنا يصبح المجتمع ساحة معركة وأحداث عنيفة بين أطراف متخاصمة باسم الدين.

بناء على ما سبق، يمكن القول إن العنف وفق المنظور الاجتماعي يتوزع على الممارسات التي يحدثها الأفراد أو الجماعات وتكون لها صلة مباشرة بتركيبة المجتمع، أي أن ما يجمع بينها هو كونها تنضوي تحت إطار اجتماعي وبيئة مشتركة.

وقد تبدى لنا من خلال الوقوف عند المنظور النفسي والاجتماعي لمفهوم العنف أنه ظاهرة مركبة لا يمكن اختزالها في بُعد واحد، بل تتقاطع فيها عوامل نفسية وأخرى اجتماعية، وعليه فإن فهم هذا التداخل يكون ضروريا لتحديد العنف في الرواية الجزائرية _ التي تحكي عن العشرية السوداء _ إذ لا تكفي النصوص الروائية بسرد الأحداث العنيفة فقط، بل تسعى إلى تبين الدعايات النفسية والاجتماعية لهذا العنف، من خلال تقديم شخصيات تحمل في داخلها كل هذا التعقيد، وكذا تقديم هياكل اجتماعية متصدعة تنزف من الآثار السلبية للعنف.

المبحث الثالث: أشكال العنف

يتخذ العنف أشكالاً مختلفة باختلاف السياقات والظروف التي يولد فيها ويتفاعل معها، منها ما يترك أثراً على المعتدى عليه، ومنها ما لا يمكن ملاحظة نتائجه، لأن آثاره تكون نفسية تظهر لاحقاً على سلوكاته وتصرفاته، وتتوَّع هذه الأشكال لتعبّر عن صراعات الذات مع نفسها ومع غيرها، وتعكس حالة الاستقرار التي تلحق بالبنى الفكرية والثقافية للمجتمعات العنيفة، وسنقتصر في هذا الموضع على ذكر أبرز الأشكال التي عبّر عنها الخطاب الروائي الجزائري المعاصر وتفاعل معها، وكانت حاضرة بشكل ملفت في مدونتنا.

1. العنف الجسدي:

يتمثل العنف الجسدي في الفعل العنيف الموجه ضد شخص ما، تُستخدم فيه القوة الجسدية ويتخذ أشكالاً مختلفة كالصفع والركل ورمي الأجسام الصلبة، واستخدام بعض الآلات الحادة أو التلويح بها للتهديد، إلى جانب الضرب والشنق والحرق والخنق وغيرها، أي أنه يكون ظاهراً على الفرد ويعبّر عن «تلك السلوكات التي تُمارس باستخدام الحركة الجسدية في الاعتداء على الآخرين مثل: الضرب والرفس والشدّ والدفع والتكسير»¹ فهو يشمل كلّ أذية تلحق بالجسد، ويعدّ القتل أبشع أنواعه وأشدّها قسوة، ولعلّ معظمها يكون دفاعاً عن الشرف أو النفس، وما يجعله خطيراً هو استعمال الأسلحة كالسّاطور والسكين والمسدّس وغيرها، وهو أكثر الأشكال مباشرة ووضوحاً، سواء كان فردياً أو جماعياً أو في سياق الحروب والصراعات

¹ - نور الدين بن مختاري، ظاهرة التطرف والعنف من مواجهة الآثار إلى معالجة الأسباب، ج 2، سلسلة كتاب الأمة، ط 1، قطر، 2015، ص 48.

المسلّحة، وهو الشّكل الذي يهيمن على النصوص الرّوائية الخاصة بالعشرية السوداء، حيث تتكاثر مشاهد الاغتيال والاعتداء بشتى أنواعه.

2. العنف السّياسي:

يبرز العنف السّياسي كظاهرة عالميّة تعرفها المجتمعات البشريّة كافة بدرجات مختلفة، وبصور وأشكال متعدّدة تتفاوت خطورتها بتفاوت أسباب حدوثها والأساليب المستعملة فيها، وقد ارتبط العنف بالسّياسة ارتباطاً وثيقاً، وبات أحد آليات تنفيذ السّياسة وبسطها في المجتمع وتغيير مؤسساته. فيعرّفه "تيد هندريش" (Tid Handrich) بأنّه «اللّجوء إلى القوّة أو أيّ عمل مُدَمِّر ضدّ الأفراد، أو باستعمال أشياء يحظرها القانون، موجّهاً لإحداث تغيير في السّياسة، أو في نظام الحكم، أو في أشخاصه، ولذلك فإنّه مُوجّه أيضاً لإحداث تغييرات في وجود الأفراد»¹، ويقصد بذلك أنّ العنف السّياسي سلوك يجعل القوّة وسيلته نحو تحقيق الأهداف التي تتناسب مع رؤية السلطة واستراتيجيات مؤسساتها الحاكمة، وهو يتجاوز في هذا المشرّع وما وضعه القانون، وقد عرفته المجتمعات الإنسانيّة في مختلف الحضارات والشعوب ضمن أشكال الحكم المتعاقبة التي طغت وعبّدت الشعوب وأفسدت في عهدها.

وقد يطال العنف السّياسي استخدام الممتلكات أيضاً، إضافة إلى الأعمال التي يقوم بها النّظام ضدّ الأفراد والجماعات قصد إحداث تغييرات سياسيّة، لهذا فالعنف السّياسي يرتبط بكلّ شكل من أشكال التّخريب والدمار لتحقيق أهداف سياسيّة، غرضها ترويض الشعوب

¹ - تيد هندريش، العنف السّياسي فلسفته وأصوله وأبعاده، تر: عيسى طنّوس وآخرون، دار المسيرة، ط 2، لبنان، 1966، ص 46.

ليسهل انقيادها للسلطة الحاكمة. وفي هذا النوع من العنف تظهر ثنائية (الغالب والمغلوب) على اعتبار أن النظام الذي تكون بيده السلطة يسيطر على الساحة السياسية، فتغدو مقاليد الحكم وتسيير المؤسسات الهامة بيده، ومن ثم يكون غالبا بما يملكه من قوة ظاهرة يستطيع بها أن يُعَنَّف من يخالفه، وفي المقابل يظهر الطرف الآخر (المغلوب) وهم الأفراد الذين تقع عليهم أشكال العنف فيكونون إما خاضعين ومنقادين، وإما رافضين ومقاومين للتجاوزات السياسية العنيفة التي تمارسها السلطة عليهم.

3. العنف الاجتماعي:

تبقى ظاهرة العنف سمة بارزة من سمات البشر بالرغم مما توصلت إليه المجتمعات الحديثة من تطوّر ورقّي في جميع المجالات، إذ يظهر العنف الاجتماعي باعتباره «الوسيلة الأكثر شيوعا لتجنّب العدوانية التي تُدين الذات الفاشلة بشدّة، من خلال توجيه هذه العدوانية إلى الخارج بشكل مستمرّ أو دوريّ»¹، فهو يعكس حالة انتقالية تبتعد فيها النفس بعد الشعور بالانهزام والفشل عن جلد ذاتها، لتنتقل إلى تفريغ تلك الشحنات السلبية على أطراف خارجيّة ضمن المجتمع الذي تنتمي إليه، فيأتي العنف كردّ فعل لإثبات الذات وتحقيق السيطرة على الغير ضمن نطاق الجماعة.

كما يتجلى العنف الاجتماعي من خلال مجموعة من الاختلالات والتناقضات التي تمسّ الهياكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع، وتنعكس في مظاهر متعددة داخل

¹ - مصطفى حجازي، التخلّق الاجتماعي (مدخل إلى السيكلوجية المقهورة) المركز الثقافي العربي، ط 1، المغرب، 2005، ص 165.

البنية الاجتماعية كبروز الجماعات الانفصالية، وغياب العدالة الاجتماعية، والحرمان من الحقوق، وعدم إشباع الحاجيات المتعلقة بالتعليم والصحة وغيرها.¹ فهذه المظاهر تجسّد حالات متعددة من العنف الذي يمسّ بنية المجتمع فيكون مشتركاً بين أفراد، ويستغرق شرائح اجتماعية مختلفة يمارس بعضها نوعاً من العدوانية على غيره

وفي السياق نفسه يرى الدكتور "سهيل مقدّم" أنّ العنف الاجتماعي هو «العنف الذي يرتكبه الإنسان لدفع مخطّط اجتماعي معيّن قُدماً مثل: الجرائم التي ترتكبها جماعات منظمة بدافع الكراهية والحقد والأعمال الإرهابية»²، وهذا يعني أنّ العنف الاجتماعي هو نوع من العنف الذي لا يحدث عشوائياً، بل يكون وراء دوافع مرتبطة بالمجتمع فقد يتأثر الإنسان بالظروف المحيطة به، كالظلم والتهميش والاحتقار ومنع حرية التعبير، فيندفع بالقوة متأثراً بأفكار فردية أو جماعية أو تنظيمات معينة.

4. العنف النفسي:

يحيل العنف النفسي إلى كلّ أذية تتضمن استخدام الألفاظ لجرح المشاعر أو التخويف أو المطالبة بالقيام بأشياء تحت الوعيد والتهديد، أو الإساءة عن طريق السخرية والاستهزاء، وهو كثيراً ما يرتبط بالعنف اللفظي (انعكاس له) فيُعَرَف على أنّه «عبارة عن كلّ ما يؤذي مشاعر الضحية من شتم وسب أو أيّ كلام يحمل التجريح، أو وصف الضحية بصفات شنيعة

¹ _ Voir : Fred R. Von Der Mehden, Comparative Political Violence (Englewood cliffs, N. J : Prentice-hall) 1973, p 7_10.

² _ سهيل مقدّم، من أجل استراتيجية فعالة في مواجهة العنف الاجتماعي، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية،

ع 8، مج 4، جامعة وهران _ الجزائر، 2012، ص 377.

ممّا يشعرها بالامتهان أو الانتقاص من قدرها»¹، وهذا يعني أنّ العنف النفسي يستهدف الصّحة النفسيّة العاطفيّة للفرد (الجانب الرّوحي) ويكون غير ملموس كالشّتم والسّب أو الاحتقار والتّهميش أو الهجر أو الحرمان من أبسط الأمور أو التّخويف، وآثاره ليست واضحة، بل عميقة داخلية كالاكتئاب والخوف والقلق والشعور بالدّنب والاغتراب والرعب وغيرها.

وهكذا يمكن أن نستنتج أنّ العنف النفسيّ هو أخطر أشكال العنف، كونه يترك ندوبا داخلية قد تبقى لفترة طويلة، ويستمر أثرها في النّفس والذاكرة على المدى البعيد، إذ يصعب نسيان تداعياته، بل تصبح الذات رهينة له في الكثير من الأوقات، تستحضره كلّما مرّت بموقف مشابه، أو سمعت كلاما يحمل الدلالة ذاتها، وهنا تكون النّفس حبيسة للأثر الجسيم الذي أحدثه هذا النوع من العنف عليها، فتعيش في حالة قلق واضطراب يصعب معها التعافي الكلّي من بقاياها.

5. العنف الرّمزي

يعدّ العنف الرّمزي نوعا من العنف غير المباشر، لا يعتمد على الضّرب أو الإيذاء الجسدي الظاهر، بل يُمارس من خلال اللّغة والإشارات والعادات والرّموز داخل المجتمع، وهو يُحيل إلى الأذى الذي يلحق بالآخر عبر التّهميش والتّحقير وغيرها، وقد ارتبط باسم عالم الاجتماع "بيار بورديو" كونه أبرز المنظرين لمفهومه؛ حيث ربطه بـ«الهابتوس» (HABITUS) والحقل (le champ) ورأس المال (Le capital) فالهابتوس هو مجموع الاستعدادات الدّهنية

¹ - عبد الله بن أحمد العلاف، العنف الأسري وآثاره على الأسرة والمجتمع، المكتبة الشّاملة الدّهنية (د ط) مصر، 2019، ص06.

والبدنية الراسخة التي يكتسبها الفرد عبر التنشئة الاجتماعية، والتي توجه سلوكه وخياراته وتفضيلاته دون وعي منه»¹.

يتضح من خلال مفهوم "بورديو" أن الفرد يملك عادات واستعدادات يكتسبها من المجتمع، توجه تفكيره وسلوكه بشكل غير واعٍ في حقل معين (تعليم، سياسة، أدب...) حيث يكون علاقات ويعيش صراعات بين الأفراد فيستعين برأس المال (مكتسبات، مال، معرفة، شهادة...) الذي يمنحه قوة داخل هذا الحقل، فالعنف الرمزي حسب منظوره ينتج عن تفاعل الهابتوس والحقل ورأس المال، فالهابتوس يجعل الأفراد يتقبلون الهيمنة والسيطرة دون وعي بفضل التصورات المزروعة عن طريق العادات والثقافات، ومن هنا يحدث العنف الرمزي، كون الضحية لا تعترض داخل الحقل لأنها تتصارع لقواعد وقوانين، بينما رأس ماله يجعله قادراً على فرض معايير مخالفة وهنا يكون الصدام.

ويطلق على العنف الرمزي مسمى (العنف الدلالي) وكذا (العنف التسلطي) الذي لا يعتمد على الضرب أو القوة الجسدية، بل يقوم على فرض السيطرة على الآخرين بطرق خفية، ويظهر من خلال الكلام أو الرموز أو الأساليب التعبيرية التي تحمل معان مؤذية، بحيث يؤثر على معتقدات وأفكار الأفراد فيجعلهم يشعرون بالنقص أو الضعف، لذلك فهو خطير لأنه غير ظاهر لكنه يترك آثاراً عميقة في نفسية من يتعرض له.

¹ - بيار بورديو، أسئلة في عالم الاجتماع، تر: عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال، ط 1، المغرب، 1984، ص 68.

ويظهر هذا مثلاً في الرواية المعاصرة من خلال القوة المضمرة الناتجة عن الاعتراف الاجتماعي والثقافي وليس المال والقوة الجسدية، ويتجسد بوضوح في الشخصيات التي تمتلك تأثيراً على الآخرين عبر السمعة أو المعرفة أو الثقافة أو المكانة. وفي هذا الموضع من الطرح يلتقي تصوّر "بورديو" مع تصوّر "فوكو" حين اعتبر الخطاب أحد ميادين ممارسة العنف الرمزي، كونه ينتج المعرفة ويعيد تشكيل الواقع.

الفصل الثاني

تجليات العنف في رواية تحت وطأة الدم

المبحث الأول: تشكلات العنف

1. العنف الجسدي
2. العنف السياسي
3. العنف النفسي
4. العنف الاجتماعي
5. العنف الرمزي

المبحث الثاني: الأبعاد النفسية والاجتماعية لخطاب العنف

1. الأبعاد النفسية
2. الأبعاد الاجتماعية

المبحث الثالث: التقنيات السردية لتمثيل العنف

1. السرد المتشظي
2. التباطؤ الزمني
3. السرد المتكرر
4. الوصف

تقديم:

لم تكن الأزمة الأمنية الجزائرية التي امتدت على مدار عشرية كاملة ظاهرة عرضية، فقد أقحمت تحولات عديدة في كيان المجتمع والدولة، واستطاعت أن تمثل مادة إبداعية زاخرة ألهمت أقلام الكتاب للخوض في حيثياتها، إذ اصطدم المشهد الروائي في الجزائر منذ التسعينيات بجملة من الأحداث السياسية والدينية والاقتصادية المتأزمة؛ مما جعل الأدباء يميلون إلى ما يعرف "برواية العنف" أو "العنف والإرهاب"، وهو أدب وُلد تحت الظروف المفاجئة التي طبعت المجتمع الجزائري على نمطية مأساوية لم يستوعبها نظرا لوقائعها الصادمة.

وتعدّ الرواية من أكثر الفنون الأدبية القادرة على إيصال وجهة النظر المستبصرة لخطر العنف على المستوى الإنساني ككل، فكانت من أهمّ الإنتاجات الإبداعية التي أرخت لمحنة الجزائر في تلك الفترة. وقد شكّل العنف بشتى أشكاله: الجسدي، السياسي، النفسي، الاجتماعي والرمزي محور العديد من الأعمال الروائية الجزائرية، فجادت قريحة الأدباء في تصوير الواقع المرير الذي تأدّت منه مختلف شرائح المجتمع على اختلاف مشاربهم ومستوياتهم الفكرية.

وتبرز "رواية تحت وطأة الدم" للكاتبة "منى قرشوش" في هذا الصدد، بوصفها أنموذجا سرديا يعبر عن حضور العنف في أقصى تجلياته؛ حيث يتفاعل العنف مع البنية السردية ليصوّر تجربة إنسانية مأزومة، كما تكشف الرواية عن تمثّلات خطاب العنف المتعددة، التي تتراوح بين العنف السياسي والعنف الرمزي والعنف الجسدي والعنف النفسي والعنف الاجتماعي، وعليه يسعى هذا الفصل إلى رصد تمثّلات العنف في "رواية تحت وطأة الدم" من خلال الوقوف على أشكاله، وتتبع ملامحه الخطابية، وبيان أثره النفسي والاجتماعي في بناء الشخصيات وتطور الأحداث، ممّا يسمح بفهم أعمق لدلالاته الفنية.

المبحث الأول: تشكيلات العنف

يتوزع العنف في رواية "تحت وطأة الدم" على أشكال متعدّدة، فتارة يظهر في صورة عنف جسدي يرتبط بالحاق الأذى المباشر بالجسد، وتارة أخرى يظهر على شكل عنف نفسي يترك أثارا داخلية على مشاعر الفرد وسلوكه، كما يتّخذ طابعا اجتماعيا يمسّ العلاقات داخل المجتمع، أو سياسيا ينتج عن السلطة والصراع، إضافة إلى العنف الرمزي الذي يتسلل خلف الكلمات والممارسات. وسنفصل في هذه التشكيلات ضمن العناصر الآتية:

1. العنف الجسدي:

يُعتبر العنف الجسديّ في رواية "تحت وطأة الدم" من أبرز المظاهر التي تكشف عن تجربة قاسية تتجاوز حدود الجسم وتدّنس حرمة المساس به؛ حيث لا يُعرّض التعذيب أو القتل كمشهد عابر، بل كحالة مستمرة تثقل وجود الشخصيات واستقرارها، فالجسد هنا يتحوّل إلى ساحة تُمارس عليها السلطة، إذ لا يتوقف أثر هذا العنف عند حدود الألم الظاهر، بل يتسرّب إلى داخل النفس تاركا خوفاً وقلقاً لا يهدأ تحت ذاكرة مُثقلة بالمشاهد القاسية، ممّا يفقد الذات توازنها، ويجعلها في حالة تأهب دائم، فالعنف لا ينتهي بل يستمرّ داخلها. ومن ناحية أخرى فإنّ هذا العنف يكشف عن واقع مختلّ تحكمه علاقات غير متكافئة؛ حيث يفرض القويّ سلطته دون رادع، فالمشهد لا يعكس الصراع فقط، بل يُعبّر عن نظام قاسٍ، وهكذا يتحوّل العنف الجسديّ إلى شاهد على الألم والمعاناة التي كابدها الشخصيات الروائيّة.

أول ما يستوقفنا في هذا المضمّار ما رواه البطل "جواد" عن معاناته هو وعائلته من ويلات الإرهاب في العشريّة السوداء، إذ تعتمد الكاتبة على ذكر هذه المشاهد العنيفة من خلال قوله: «عندما وصلتُ إلى هناك، تمنّيت لو أنّي كنت أحلم، تمنّيت لو أنّ هذا مجرد كابوس، سأستيقظ منه، لكنّ

الواقع كان أقسى من أيّ خيال، أخي كان مُستلقياً في مكانه، جسد بلا حراك، لكنّ المنظر كان أشبه بلوحة مرعبة مرسومة بالدماء، كانت بركة الدم تُحيط بجسده تتوهج بلون أحمر داكن تحت ضوء القمر الشاحب، رقبته تحمل جرحاً عميقاً ومُخيفاً، وكأنّ يداً وحشية قد امتدت إليه أثناء نومه، أنهت حياته دون أن تمنحه فرصة للنجاة أو الدفاع عن نفسه»¹ يُصوّر هذا الخطاب مشهداً عنيفاً حين يكشف الراوي (جواد) جثة أخيه المذبوح، ليمثّل نقطة التحوّل الدراماتيكية الأولى في الرواية خاصّة كونه البوّابة التي يدخل منها القارئ إلى عالم العنف المطلق.

تصف الكاتبة هذا المشهد بدقّة تشريحية مُرعبة، لتجعل القارئ يشارك تجربة اكتشاف الحدث ويعاين حالة الجسد المُنتهك كأنّه يشاهدها أمامه؛ حيث تتشكّل صورة الجسد على مستوى تمثيلات القارئ الذهنية، ويستطيع أن يتتبع ملامح هذا العنف حسب التفاصيل المرعبة التي جسدها خطاب الرواية؛ إذ جمعت فكرة الموت بين استلقاء الجسد وسكون الجثة المرعب، لتجعل بركة الدم الداكن المشهد أكثر مأساوية ودموية، ثمّ يتجلّى مظهر الجرح العميق على مستوى الرقبة فيوسّع من تداعيات الحدث، ويؤكد على مدى شناعة العنف المرتكب على جسد الضحية.

لا يتوقف أثر العنف الجسديّ على الضحية فقط، بل يمتدّ ليشمل من يشهد الحدث كذلك، إذ أسهمت ملامح الجسد السابقة في إدخال الراوي إلى حالة من الذهول الكبير، فهذا الحدث كان كابوساً واقعياً مُخيفاً، جعله يعيش دوامة من الأسئلة التي لم يجد لها تفسيراً، وكانت سبباً في فقدانه الأمان والرغبة في الهروب «وقفتُ مذهولاً لا أستطيع الاقتراب ولا الابتعاد، شعرتُ بأنّ الأرض قد تجمّدت تحت قدمي»². تعكس هذه

¹ - منى قرشوش، تحت وطأة الدم، دار خيال للنشر والترجمة، ط 1، الجزائر، 2025، ص20.

² - المصدر نفسه، ص21.

المشاعر المرحلة الأولى لاستجابة النفس للصدمة والرغبة في الإنكار¹؛ حيث شكّل مقتل الأخ حدثاً مفاجئاً للزّاوي كسر توازنه، فسكون جسده يوازي سكّون جثة أخيه ويمتدّ ليكشف عن شعور عميق بالعجز، فهو يقف في منطقة وسطى بين الاقتراب والابتعاد، ولا يستطيع فعل شيء بسبب ثقل الحادثة على نفسه.

يفتح هذ المشهد باباً على واقع مضطرب غير مستقر؛ حيث لم يعد الأمان أمراً مضموناً حتّى داخل الفضاءات العائليّة كالبيت، فموت الأخ بهذه الطّريقة يُوحى بأنّ العنف لم يعد استثناءً، بل صار ممكناً في أيّ لحظة، كما يلفت الانتباه إلى أنّ الفعل الإجراميّ العنيف حدث في سكّون اللّيل وسط صمت مرعب دون حضور الفاعل، وهذا ما يُبرّر غياب الأمن والاستقرار، فلم يعد الفرد محاطاً بالحماية، بل أصبح عُرضة للفناء دائماً دون قدرة على المقاومة أو أمل في تلقّي المساعدة.

كما يتجلّى العنف الجسديّ في موضع آخر حين يقول السّارد: «تتدخلّ أمي فجأة كالمارد الذي يخرج من قمقمه، لم تترك لها الظروف وقتاً للتّفكير ولا لأيّ رد فعل ضعيف أن يتسلّل إليها، بل كانت كما لو أنّ الجدران نفسها قد انقسمت لتكشف عن قوّتها الحقيقيّة، في يديها كان الشّاقور يتلألأ كأداة العدالة، وقبل أن يدرك ذلك الرّجل ما يحدث، كانت أمي قد انتقلت إليه في خطوة سريعة ثابتة، كان الشّاقور يهوي على رأسه بقوّة، الصّوت الذي أحدثه ذلك الضّرب كان أشبه بانفجار في صمت اللّيل... بينما كان جسده يتمايل قليلاً قبل أن يسقط على الأرض فاقدًا للوعي»² تقرّر الأم في هذا المقطع السّماح لغريزتها بأن تتكلّم ليتجلّى عندها شعور الحماية بشكل حاد، خاصّة عندما

¹ _ Voir : Judith Iwls hirman, trauma and recovery, the aftermath of violence, from domestic abuse to political terror, basic book, New york, 1997 , p33.

² - منى قرشوش، تحت وطأة الدّم، ص26.

يتعلّق الأمر بحماية العائلة؛ حيث تحوّل الخوف عليهم إلى فعل مباشر، وكأنّ العقل حينها لم يسأل (ماذا أفعل؟) فجاء القرار المباشر المفاجئ بسبب تراكم نفسيّ سابق ولّده الذعر والتوتر والشّعور الطويل بالعجز أمام التهديد، فيغيب التردّد ليكون الحافز هنا هو الحماية والدّفاع عن الأسرة. وتتجلّى تمثيلات العنف الجسديّ في هذا المشهد من خلال مجموع التّوصيفات التي قدّمتها الكاتبة لفعل الأم ولنتيجته التأثيريّة على مستوى جسدها وجسد الضّحية. تبدأ من المشبّه به (المارد) في إشارة إلى السرعة العجائيّة التي ارتبطت بحركة جسد الأم في لحظة ظهورها، وتتزامن هذه السرعة مع تركيز الراوي على القوة الكبيرة وغير المألوفة التي ظهرت عليها كذلك، لتتبعها حركة اليد وهي تحمل الشاقور كوسيلة للعنف الذي سيتجلّى مع فعل الضرب وصوته القويّ (الانفجار) مما يعكس حجم الضربة على رأس الضحية، الذي أسعفه جسده على التمايل كتعبير عن فقد التوازن قبل السقوط على الأرض.

تمثل المشاهد السابقة الملامح التي يتمظهر عليها العنف الجسديّ عند الأم، والذي نجده يرتبط بقضيّة استرجاع الحق باستعمال القوة التي أشار إليها "بورديو" في حالة غياب الحماية من المؤسسات أو النّظام¹، فيحدث العنف الجسديّ نتيجة لرد فعل سريع يقتضيه سياق الأحداث. ولم يسلم الراوي من العنف الجسديّ حين يقول: «لم يكن شيء في تلك اللّيلة يُوحى بأنّها ستكون استثنائيّة، كان الصّمت يُغلّف المنزل كعادته، و الظلام ينسدل على الأرجاء بهدوء مريب، حتّى شعرت بضربة قويّة على رأسي، شيء حادّ وثقيل أفقدني التّركيز للحظات، ثمّ تبتعتها طعنة في جنبي جعلتني أترنّج وأقع على الأرض، الألم لم يكن كافيا ليقضي عليّ، لكنّه أشعل بداخلي شعورًا

¹ _ ينظر: بيار بورديو، أسئلة في علم الاجتماع، ص 68.

بالخطر الداهم، حاولت أن ألتقط أنفاسي وتملّكني الرّعب وأنا ألتفت محاولاً رؤية من هاجمني، لكنّ الفراغ كان سيّد الموقف، لا أحد أمامي، ولا صوت سوى دقات قلبي المتسارعة، مددت يدي المرتعشة لأمسح الدّماء التي بدأت تتسلّل من جنبي وهممت بالنّهوض بصعوبة. كان هدفي واضحاً إيقاظ والدي وإبلاغه بما حدث.¹ يمثّل هذا الخطاب عنفاً جسدياً حين تلقّى الراوي ضربة مفاجئة أحدثت انهياراً في توازنه الجسدي؛ حيث كانت الحياة في البداية هادئة ومألوفة (الليل، الصّمت، الظّلام) ثمّ حدث انفجار سرديّ مفاجئ (ضربة/ طعنة/ سقوط) يعكس مدى قدرة هذا النّوع من العنف على تغيير مسار الأحداث وتعديل زاوية النّظر، ليغيّر القارئ معها عدسة المتابعة نحو تمفصلات العنف على مستوى الجسد.

يبدأ العنف الجسدي في هذا المقطع بشكل مباشر من خلال فعل الضرب على الرّأس، وتوصيفه بالقوة للتأكيد على شدّته، ثمّ الانتقال إلى أداة الضرب من خلال ذكر أوصافها فقط (حادة وثقيلة) لتأتي بعدها الطعنة على مستوى الجنب، ويختّم العنف بحركة ترنّج الجسد وسقوطه على الأرض كنتيجة للألم الشديد الذي شعر به. ويمكن أن نلاحظ أنّ حضور العنف الجسديّ هنا كان على شكل متتابع، يعكس الانتهاك الصارخ لحرمة الجسد إذ تمّ الانتقال من مستوى الضرب إلى الطعن في حركة تعلن عن تصاعد الرغبة في القضاء على الضحية باستهداف جسده. وتجدر الإشارة في هذا السّياق إلى أنّ الضّربة الجسديّة ليست هي العنف وحده، بل حتّى الصّمت وغياب الفاعل والشّعور بالخوف والرّيبة كلّها عوامل تضافرت مشكلة فضاء مشتركاً يُنتهك فيه الجسد.

¹ - منى قرشوش، تحت وطأة الدّم، ص 21.

وهكذا يُمكن القول إنّ خطاب العنف الجسديّ في رواية "تحت وطأة الدم" لا يمكن فهمه بوصفه حدثاً عابراً، أو مجرد ضربة جسدية تُوقظ الوعي لحظة، وتترك الجسد بين الألم والارتباك، كما أنّه ليس حدثاً فردياً فقط، بل هو جزء من الواقع المتأزّم، وهكذا يتحوّل العنف من ضربة إلى أثر، ومن حدث إلى تفكّك في الرؤيا؛ حيث ظهر كسلوك مفاجئ كسر هدوء المكان ثمّ تحوّل إلى جرح وألم أربك الجسد وخلخل بنيته.

وقد تجسّد العنف الجسديّ في عدّة صفحات من الرواية _ لا يسعنا المقام للتفصيل في حيثياتها _ حيث أثر بشكل كبير على نفسيّة الراوي الذي عاش هذا العنف في طفولته، إلا أنّ آثاره لا تزال حيّة، فهو يسترجع أحداث العشريّة السوداء بالرغم من مرور السنين ويرويها لأحفاده، وهو ما يؤكّد أنّ الرواية المعاصرة لا تُسجّل العنف الجسديّ كحدث جسديّ بسيط، وإنّما كتجربة إنسانيّة تترك آثاراً عميقة على الشخصيّات، فهي توثّق الآلام والمعاناة، وتبرز كيفيّة تحوّل الجرح الجسديّ إلى جرح نفسيّ يتجلّى في الخوف والقلق وفقدان الأمان، وهذا يمتدّ إلى أمد بعيد.

2. العنف السياسيّ:

تعدّ السلطة السياسية من الدّعائم المهمّة التي تقوم عليها المجتمعات، فهي تسهم في تنظيم شؤون الحياة، كونها تملك القدرة على إصدار الأحكام؛ حيث تسعى لمواجهة المخالفات والاعتداءات، باعتبار أنّ كلّ الأمور موكلة إليها، والغاية من ذلك هي فرض النظام وحماية الحقوق، وتحقيق الأمن والاستقرار في المجتمع، لكن هذه السلطة «قد تكون مشروعة ومخوّلة، تُمارَس في إطار الحدود المتعارف عليها والتي تسمح بها القوانين المسطّرة، كما قد تكون سلطة تفتقد للأسس الشرعية، وتقوم

على التسلط والعنف والجبروت والإكراه»¹، ونفهم من هذا أنه يمكن أن تستغل السلطة لتحقيق مطالب منافية للقوانين فتلجأ لاستخدام القوة والعنف، وهذا ما يؤدي إلى وجود أطراف متنازعة فيما بينها في المجتمع «طرف يملك القوة والملك وكل المؤسسات المتحكمة في السلطة، وطرف مملوك تمارس عليه السلطة في مختلف المستويات»² وهذا التقسيم واقع تعيشه الجزائر والعديد من الدول في العالم. تمثل السلطة في رواية "تحت وطأة الدم" طرفا من أطراف الصراع، وهي أحد أقطاب الحرب الدامية التي قامت بينها وبين أعضاء حزب "الجبهة الإسلامية للإنقاذ" والذي أطلق على من التحق بالجبال منهم اسم "الإرهاب"، وكل هذا أدى إلى لجوء الكثير من أفراد الشعب إلى العنف والصعود إلى الجبال، واختيار سبيل المواجهة المسلحة بدل التفاهم والحوار.

يسجل خطاب الرواية مشاهد سياسية كثيرة تعكس محطات تاريخية عنيفة مرت بها الجزائر، نذكر منها «في عام 1992 كانت الجزائر تعيش على حافة الانهيار، وعلى أبواب نقطة تحول جديدة في تاريخها المأساوي، الرئيس (محمد بوضياف) الذي عاد إلى السلطة في محاولة يائسة لإعادة البلاد إلى مسارها الصحيح، كان رمزا للأمل المفقود... لكن المفاجأة الكبرى التي غيرت كل شيء كانت اغتياله البشع الذي وقع في 29 يونيو 1992»³، فبعد أن جاء الرئيس بوضياف تنفس الشعب الجزائري الصعداء، لكن هذا لم يدم طويلا مع حدث الاغتيال، الذي يعد نقطة تحول في تاريخ الصراع، لأنه أنهى آخر محاولة جدية تقدم حلاً للأزمة السياسية، وفتح الباب أمام تصعيد

¹ - حسن الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، إفريقيا الشرق، ط 1، المغرب 2014، ص 244.

² - علال سنقوفة، المتخيل والسلطة في علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسية، منشورات الاختلاف، ط 1، الجزائر، 2000، ص 7.

³ - منى قرشوش، تحت وطأة الدم، ص 335.

العنف من الطرفين، وهو ما جعل من العنف أداة سياسية تستخدمها الأطراف المتصارعة لتحقيق أهداف محدّدة كالآتي:

■ الجماعات المسلحة:

استخدمت الجماعات المسلحة العنف لزعزعة استقرار الدولة، وإرهاب المواطنين وإجبارهم على الانصياع لها، وكذا الانتقام من عملاء النظام _ كما هو الحال مع عائلة الزاوي جواد _ إضافة إلى فرض رؤيتها على المجتمع من خلال القوة والعنف.

يظهر الانتقام من أتباع النظام جلياً مع عائلة جواد، لأنّ الأب كان يعمل ضابطاً في الجيش، وقد تعرّضت العائلة للتعنيف من قبل الجماعات المسلحة، وصارت تعيش حالة ترقّب وخوف دائمين منذ وصول رسالة غامضة تهدّدهم بالقتل «كان والدي يجلس في كرسيه المعتاد، نظر إلى الظرف بنظرة عابرة.... رأيت وجهه يتجمّد عند قراءتها، وهذا ما دفع بالعائلة إلى التشرّد القسري بحثاً عن ملاذ آمن، كنّا دائماً على الطريق، ننقل من ولاية إلى أخرى وكأننا نحاول الهروب من شيء يلاحقنا بلا كلل، أو ربّما نبحت عن شيء ضاع منّا منذ زمن»¹ فهذا التشرّد ليس اختياراً، بل أفرزته الأوضاع السياسيّة للبلاد، إذ لا يتجسّد العنف في مواجهة واضحة هنا، بل في رسالة تحمل عنفاً قادماً يهدّد وجودهم، وينزع استقرارهم.

■ عنف الدولة:

استخدمت الدولة العنف في سياستها بغرض قمع المعارضة المسلحة والحفاظ على سلطتها، وكذا لتهريب المواطنين وضمان انقيادهم، من خلال إجراءات أمنية مشدّدة (حظر التجوّل،

¹ - منى قرشوش، تحت وطأة الدم، ص 14، 15.

الاعتقالات، الحواجز الأمنية الكثيرة...) وهذا ما جعل المواطن محاصرا بين عنفين: عنف الدولة وعنف الجماعات المسلحة «في الوقت الذي كان فيه الشعب ينتظر ويراقب النتائج في دهشة بدأ النظام الحاكم يدرك أنّ ما حدث كان بداية النهاية للهيمنة السياسية التي عاشها لعقود وبدأت تنكشف نواياه، فبدلاً من أن يعترف بالنتائج ويقبل بالتغيير سارعت السلطة إلى إبطال تلك النتائج»¹ يمثل إعلان نتائج الانتخابات محطة فاصلة لتغيير الواقع السياسي لدى الشعب الجزائري، وهو ما جعل السلطة ترفض تلك النتائج وتتجاوزها.

وهكذا يبدو أنّ النظام الحاكم دخل في حالة قلق وجودي سياسي، إذ لم يعد الخطر مجرد احتمال بل أصبح واقعا ملموسا يهدّد نفوذه باستمرار، لذلك تظهر استجابته السريعة التي تقوم على الرفض والتّصعيد بهدف تقليل الإحساس بالتهديد واستعادة السيطرة، كما أنّ رفض الاعتراف بالنتائج يمكن فهمه كنوع من إنكار الواقع؛ حيث تلجأ السلطة إلى إعادة تشكيل الحدث عوض مواجهته، محاولة الحفاظ على صورتها المستقرة داخلياً، وبذلك يكشف ما ذكر في الرواية عن حالتين متقابلتين: دهشة وارتباك لدى الشعب، وقلق ودفاع لدى السلطة تجنباً لما يهدد استمراريتها.

يمكن أن نستند في هذا المقام إلى توصيف "ميشيل فوكو" لطبيعة العنف الذي تمارسه السلطة؛ إذ يبدو عدم اعتراف الدولة بالنتائج وتغييرها حركة غير متوازنة تشكّل عنفاً سياسياً يهّمس فيه القويّ الأطراف التي يتنافس معها، ذلك أنّ الشعب عند إعلان النتائج لم يكن مجرد متلقٍ سلبي، وإنّما طرفاً يراقب تحوّلًا قد يعيد توزيع موازين القوة داخل المجتمع، بينما النظام الحاكم هنا ظهر كسلطة لا تقبل الخسارة لأنّها مبنية على الاستمرارية، فسعت لحماية موقعها داخل شبكة القوة، وفي هذا الصدد يؤكّد

¹ - المصدر السابق، ص 348.

"فوكو" أنّ السلطة لا تعمل بالقوانين فقط، بل تتحرّك بسرعة كلّما شعرت بأنّ هناك ما يهدّد توازنها، فتسعى إلى إعادة تشكيل الواقع بدل الخضوع له.¹

وهكذا يكشف لنا المقطع أنّ الصراع ليس مجرد تنافس انتخابي، بل هو صراع بين شعب يراقب إمكانية التغيير وسلطة تحاول احتواء الأمور لضمان استمرارها عن طريق رفض الدورة الثانية من الانتخابات كذلك، وهذا كلّه راح ضحيته المجتمع الجزائري الذي عانى من مختلف أشكال العنف. وتجدر الإشارة إلى أنّه في هذه الأجواء المشحونة كان النظام الحاكم يحاول السيطرة على ما تبقى من البلاد، لكنّ قبضته كانت ضعيفة أمام جبروت العنف الذي تسيطر عليه الجماعات المسلّحة، لتكون نتائج هذا العنف مأساوية أدخلت الشعب الجزائري في أزمة سياسية حادة.

ويمكن القول إنّ الخطاب الروائي قد جسّد العنف السياسي بطريقة تحاكي الواقع لكنّها في الآن ذاته تختلف عنه، إذ لم يحضر كخبر تقريرى مباشر وإنّما عُرض عبر مشاهد وشخصيات ومواقف تجمع بين التاريخي والمتخيّل؛ فالعنف يظهر في لغة القلق وفي ارتباك الأحداث وتناقض المواقف وفي إحساس الشخصيات، لتتكامل هذه العناصر وتعبّر عن الوضع المتأزم في ظلّ الصراع السياسي.

3. العنف النفسى:

يتجلّى العنف النفسى في رواية "تحت وطأة الدم" بصور متعدّدة، ارتأينا أن نجملها في العناصر الآتية:

¹ - ينظر: ميشيل فوكو، المراقبة والمعاقبة، ص33.

أ. الخوف الاستباقي:

تُظهر أحداث الرواية أنّ عائلة "جواد" كانت تعيش في حالة ترقّب دائم؛ حيث يصف الراوي هذه الحالة في قوله: «في الليل كان كل شيء يبدو أثقل، الظلام من حولنا لم يكن مجرد غياب للنوم، بل كان كيانا يحاصرنا، كيانا يحمل في طياته أسراراً لم نكن مستعدين لمواجهة، كنت أستيقظ أحياناً على صوت خطوات أبي في الخارج، يتحرك كأنما يُراقب شيئاً أو ينتظر حدوثه، شعرت دائماً أنّ هناك شيئاً ما يلوح في الأفق، شيئاً يقترب ببطء، وكأنّ حياتنا كلّها كانت رحلة باتجاهه»¹.

يتجلى العنف ضمن هذا المقطع في حالة التأهب المستمر التي كانت تعيشها الأسرة، والخطاب هنا يظهرها كحالة استباقية تنتجها النفس جرّاء الخوف والقلق الذي يسيطر عليها، فالليل بالنسبة لها كان كابوساً مربعاً، ومثّل فضاءً مثقلاً بمشاعر الخوف ثقيلًا على النفس، وكأنّ الظلام أصبح منعكساً شرطياً يشير إلى حدوث الخطر، وبالتالي يجعل الفرد يتوقّع هذا الخطر قبل حدوثه. بناءً على هذا الطرح، يبدو أنّ خطاب العنف هنا ليس مجرد محتوى، بل بنية نفسية تعكس اضطراب العلاقة بين الذات والآخر، وتحول الليل من زمن للراحة إلى فضاء يحمل القلق والخوف المسبقين. وهذا ما يؤكده "فرويد" حين يذهب إلى أنّ النفس البشرية لا تتحرك دائماً للبحث عن اللذة وتجنّب الألم فقط، وإنّما قد يكون هناك دافع أعمق من هذا، وهو الخوف من التجارب المؤلمة خاصّة إذا تكرّرت²، فالإحساس بوجود شيء يقترب دون القدرة على الإحاطة به يجعل النفس تعيش داخل دائرة لا تنتهي.

¹ - منى قرشوش، تحت وطأة الدم، ص 07.

² - سيغموند فرويد، ما وراء مبدأ اللذة، ص 40.

ب. الصدمة النفسية:

تتجلى آثار العنف النفسي بوضوح على شخصية الأخت المراهقة "هبة" التي تعاني من اضطراب ما بعد الصدمة، إذ يصف الطبيب حالتها بقوله: «ما تواجهه ليس مجرد حزن عابر بل صدمة عميقة تركت آثارا نفسية قد تستمر لفترة طويلة، الفتاة تعاني من اكتئاب ما بعد الصدمة، لقد شاهدت أهوالا لا يستطيع إنسان تحملها، ما مرت به وعاشته مع عائلتها، تلك الصور التي لا تُفارق ذاكرتها هي التي تجعلها غارقة في هذا الحزن العميق، إنها محاصرة في عالم من الذكريات المؤلمة.»¹ يُقدّم هذا الخطاب العنف كأثر نفسي وقع في زمن مضى، لكنّه ما يزال حيّا راسخا داخل ذهن الفتاة، فالعنف انتقل من الخارج (الفعل) إلى الدّاخل (التمثّل) وتحوّل إلى ذاكرة مؤلمة ترفض أن تهدأ، لذلك فالحزن الذي تعيشه ليس مجرد انفعال، وإنّما نتيجة تراكم صور صادمة لم تجد طريقا إلى التّفريغ أو النّسيان.

ويمكن تفسير حالة الفتاة على أنّها تعيش ما يسمّى ب: إعادة الصدمة²؛ إذ لا تبقى التّجربة في الماضي، بل تعود بشكل متكرر في شكل صور وذكريات تفرض نفسها على الوعي، وبهذا يصبح العنف غير مرئي، لكنّه أكثر قسوة لأنّه يعمل من الدّاخل ويستمرّ دون توقّف، مما ولّد شعورا دائما بالثّقّل والاكتئاب، فالعنف في هذا الخطاب لم يعد حدثا، بل أصبح حالة نفسية مستمرة تعيشها الفتاة في شكل ذاكرة لا تتطفئ، وتجعلها أسيرة لما حدث وكأنّه يحدث من جديد في كلّ مرة.

¹ - منى قرشوش، تحت وطأة الدّم، ص309.

² - ينظر: سيغموند فرويد، ما وراء اللّذة، ص75.

ت. الأسئلة الوجودية:

تبدأ الأسئلة الوجودية حين يتوقف الإنسان عن الاكتفاء بما هو موجود، فيبدأ في مساءلة نفسه، تماماً مثلما حدث مع الأخت "هبة" فالعنف الذي عاشته لم يؤثر على حالتها النفسية فحسب، وإنما زرع نظام معتقداتها حول العالم، وجعلها تشعر بفقدان الأمان والثقة في الآخرين وهذا ما دفعها للتساؤل عن إمكانية الشفاء «هل سأتمكن يوماً من العودة كما كنت؟ هل سأستطيع العيش دون أن أكون ضحية لهذا الماضي؟»¹ يبدو أن خطاب العنف في هذا المقطع يكشف عن توتر داخلي غير مُعالج، حيث تتحول اللغة (الكلمات) إلى وسيلة لتفريغ القلق أو الشعور بالضيق، لتعبر الأسئلة الوجودية في هذه الحالة عن الإحساس بالضعف والخوف من المستقبل المجهول.

وأخيراً يمكن القول إن العنف النفسي ليس له ملامح مادية ظاهرة نستدل بها عليه، فهو ليس صراخاً أو ضرباً أو قتلاً، بل يكون في شكل خفي يتغلغل داخل الإنسان، ويؤثر على بنيته النفسية ومشاعره وأفكاره، يلاحق تمثلاته ويأبى أن يفارق ذكرياته، وينكشف على مستوى الخطاب الروائي من خلال الإشارات اللغوية التي تنقل حالة نفسية مأزومة، بحيث يدرك القارئ أنه أمام ذات مُعَنْفَة تحاول الشفاء والخروج من المأزق النفسي الذي تتخبط فيه.

4. العنف الاجتماعي:

تشكل أعمال العنف القائم على النوع الاجتماعي انتهاكاً لعدد من الحقوق الإنسانية التي تحميها المواثيق والاتفاقيات، وهو خطير لأنه الأكثر شمولية؛ إذ يتداخل مع بقية الأنواع الأخرى بشكل كبير، وقد برز ضمن خطاب رواية "تحت وطأة الدم" في مقتطفات سردية متعددة نذكر منها: «لقد انفجر

¹ - منى قرشوش، تحت وطأة الدم، ص 315.

الغضب الشعبي في جميع أنحاء الجزائر كما لو كان بركاناً ثائراً، لم تعد المظاهرات تلك المشاهد السلمية التي تنبع من احتجاجات شعبية محدودة، بل تحولت إلى موجة عارمة من العنف المتواصل الذي اجتاحت شوارع المدن.¹ يبرز هذا المقطع عنفاً جماعياً لا يظهر فجأة لأنه نتيجة تراكم طويل للضغط النفسي الجماعي، فحين يعيش الأفراد حالة قهر أو إحباط مستمر يتكون داخلهم ما يسمى بـ: الجمهور النفسي الذي يشكل كينونة مشتركة وموحدة²، ومع غياب قنوات التعبير الآمن (كالحوار أو الإصلاح) يتحول هذا الاحتقان إلى انفجار جماعي يشبه البركان.

كما أن الجماعة لا تتحرك بعقل فردي هادئ، بل بعقل جماعي تسيطر عليه الانفعالات كالخوف والغضب والشعور بالظلم، هذه الانفعالات حين تتكاثر وتكبت تتحول إلى سلوك اندفاعي، فيندفع الفرد مع الحشد من جماعته. وقد شبهت الكاتبة هذا الاندفاع بالبركان الذي نتج عن المشاعر المحتقنة، ليكشف عن حالة تفريغ نفسي جماعي، فالعنف هنا يصبح وسيلة غير واعية للتخفيف من ثقل داخلي متراكم، حتى لو كان ذلك عبر التدمير «لأنه أصبح خاضعاً لقانون الوحدة العقلية للجماهير»³، ومن هنا يعدّ هذا عنفاً اجتماعياً جماعياً يرتبط بجميع أفراد المجتمع.

كما يتجلى العنف الاجتماعي من خلال ممارسة سياسة الإقصاء والتهميش على النساء، إذ خبرنا خطاب الرواية أن المرأة في تلك المرحلة كانت تعيش حالة تهमيش جعلت عيون المجتمع ترمقها بنظرة الاستصغار والاحتقار سواء بسبب ما كانت تقاسيه جرّاء الاغتصاب وما يلحقه من وصمة عار اجتماعي، أو غير ذلك «... النساء اللّائي نجين من هذه المحنة، كنّ رمزا للقدرة على

¹ - المصدر السابق، ص 351.

² _ ينظر: غوستاف لوبون، سيكولوجيا الجماهير، تر: هاشم صبحي، دار السّاقى، ط1، لندن، 1991، ص 43.

³ - المرجع نفسه، ص 43.

الصمود، على الرغم من أن المجتمع كان يتعامل معهنّ في كثير من الأحيان بعيون غير متفهّمة، وكان يتعامل معهنّ بحذر وكأنّهنّ يحملن وصمة عار...¹، مع هذا الوصم الاجتماعيّ يتحوّل الضحية إلى ذات مشكوك فيها، ما يولّد لديها شعوراً بالنّقل النّفسيّ وكأنّها مطالبة دائماً بتبرير وجودها، ومع مرور الوقت يتحوّل هذا الوصم إلى ألم داخليّ يجعلها تعيش الحذر حتّى في أبسط العلاقات، فالوصم الاجتماعيّ ما هو إلّا عبء نفسيّ مستمرّ تغذّيه نظرة المجتمع غير المتفهّمة.² وإذا كان الشعب قد انتفض والنساء وصفن بالعار، فقد عانت الأسر أكثر من هذا، إذ كانت تتعرّض لإبادات جماعية مخيفة «في كلّ ليلة كانت هناك هويّة تختفي تحت جناح الظلام وأسر تُمحي بأكملها»³ يُبرز هذا المقطع ظاهرة اختفاء الأسر ليلاً في العشريّة السوداء، فهذا ليس حدثاً فردياً، بل يمثّل مظهراً للعنف الاجتماعيّ العميق الذي يضرب البنية التّحتية للمجتمع؛ إذ تبرز ظاهرة اختفاء الأسر فراغاً وجودياً يحدث غياب أمان الفرد ومرجعيتّه والشّعور بعدم الانتماء، كما يخلق نوعاً من الخوف والقلق الدائم والشّعور بالتهديد المحتّم.

5. العنف الرّمزي:

يمثّل العنوان عتبة مهمّة تمهّد للولوج إلى عالم الرّواية واستقصاء مكنونات نصّها؛ حيث يحتلّ عنوان رواية "تحت وطأة الدم" موقع الصّدارة في الغلاف، فهو عتبة أوليّة تمثّل تيمة العنف وتحمل في طيّاتها كثافة رمزية قوية، فكلمة (تحت) توحى بالخضوع والقهر وفقدان السيّطرة، و(الدم) الذي يرمز لاستمرار الحياة يتحوّل إلى رمز للموت والعنف، و(وطأة) توحى بالقهر الاجتماعيّ؛ أي أنّ

¹ - منى قرشوش، تحت وطأة الدم، ص381.

² - ينظر: عبد الباسط عبد الله العزّام، إدارة الهويّة لدى المرأة الأردنيّة، مقارنة من منظور الوصم الاجتماعي عند جوفمان، المجلّة الأردنيّة للعلوم الاجتماعية، ع 3، مج 17، الأردن، 2024، ص295.

³ - المصدر السابق، ص338.

الإنسان يعيش في فضاء تهيمن عليه آثار الدّم من جزاء العنف، فالدمّ يرمز للحروب والقتل والصّراعات، وهذا يعني أنّ العنف أصبح يتحكّم في المجتمع ويسيطر عليه.

وحين نغوص في الخطاب الروائي نجد أنّ العنف الرمزي يظهر في عدّة مواضع لدرجة أنّه استطاع أن يحوّل الألم إلى نظام داخل المجتمع الجزائريّ «كانت الكلمات تتساقط منه بصعوبة، ولكنّها كانت تحمل في طياتها دويّ إنذار، أخرج! أخرج الآن! كانت نبرته عميقة وحادة وكأنّها لا تحمل طلباً، بل أمراً لا يحتمل التأجيل».¹ وهذا مشهد من معركة ليلية اعتادها المجتمع الجزائريّ خلال الأزمة؛ حيث استخدم الأب لغة أمرية حملت في طياتها سرّاً للتواصل مع الابن، فهذه الأوامر نابعة عن خبير في الجيش، تعكس سلطته داخل البيت بوصفه القائد الذي يمارس سلطة رمزية من خلال لغته.

وتتبعي الإشارة إلى أنه في سياق العنف هذه السلطة ليست قمعية بل حامية، فالأب يأمر ابنه بالخروج رغبة في إنقاذ حياته؛ حيث خرجت كلماته بصعوبة لتخبرنا أنّ الأب يعيش اختناقاً داخلياً بسبب الخوف الشديد على عائلته، وهو ما منعه من التعبير الهادئ، فخرج الكلام على شكل دويّ صارخ ولجأ إلى التكرار (أخرج! أخرج الآن!) لأنّ الزمن ليس في صالحه فهو يضغط عليه بشدة لأنّ كلّ ثانية تعني فقدان الابن.

يتّضح جلياً أنّ الأب لجأ إلى إظهار العنف ليحمي ابنه، وهذا عنف خفيّ لا يحمل غاية التعنيف وإنّما عاطفة الأبوة الجياشة هي التي نطقت كي تحمي فلذة كبدها، ووفق منظور "بورديو" فإنّ العنف الرمزي يظهر بصيغة خاصّة تمثّلت هنا في استخدام الأب أسلوب الأمر بدل الحوار لأنّ

¹ - المصدر السابق، ص 27.

الموقف استدعى ذلك، فالأمر يُفرض دون نقاش والخوف يتحوّل إلى لغة سلطة حتّى تحصل الاستجابة. وهكذا فإننا نكون أمام سلطة أبوية تتحوّل إلى عنف رمزي لحظة الخطر.

ويتمظهر العنف الرمزي في الرواية من خلال مظاهر الجفاء الصامت الذي يحيط العائلة «كنا نلتقي بهم (الأقارب) فقط في المناسبات النادرة، الأعياد التي كانت تجمعنا بأشخاص نشاركهم الدم لكن لا نشاركهم الحياة، حتى تلك اللحظات، كان هناك جدار خفي بيننا وبينهم، كنا نشعر بأننا غرباء، وكأننا نحمل شيئاً يجعلنا مختلفين، شيئاً لا يستطيع أحد أن يقترب منه»¹ يبدو من خلال هذا المقطع أنّ العلاقات الاجتماعية كانت مفككة والعنف هنا يُستتق من رمزية ملامحه، فهو لا يظهر كضربة أو صرخة، بل يتسلّل بهدوء عبر الخطاب، وتعكسه عبارة "يشاركوننا الدم لا يشاركوننا الحياة" فالحياة تضع النفس في مفارقة مربكة: انتماء لا يمنح دفئاً وقرب لا يُنتج ألفة. وهنا يبدأ العنف الرمزي كضغط خفيّ يجعل الذات تشكّ في موقعها "هل أنا من الدّاخل أم على الهامش؟" فصورة (الجدار الخفي) ليست وصفاً مجازياً فقط، وإنّما تجربة حقيقية لجدار يُبنى من نظرات عابرة، ومن صمت غير مفسّر، ومن شعور بأنّ هناك شيئاً خفياً لا يصل إليهم، هذا يؤلّد إحساساً بالاختلاف قد يتحوّل إلى حمل ثقيل وانحصار تدوب معه قيمة الاجتماع العائلي.

يعمل العنف الرمزي هنا بدقّة متناهية، فهو يمرّ عبر العاديّ والمألوف ويترك أثراً دون أن يصرّح بذلك، وعند "فوكو" يمكن أن نعتبر المشهد «كشبكة من الخطابات غير المرئية التي تنظّم من هو القريب الحقيقي»² إذ لا توجد قواعد مكتوبة أو مضبوطة غير أنّ هناك معايير تُمارس: من يصغي لمن؟ من يقترب ممّن؟ من يكون في المركز؟ ومن يبقى على الهامش؟ وهذه الممارسات تُنتج

¹ - المصدر السابق، ص 07.

² - ميشيل فوكو، المراقبة والمعاقبة، ص 27.

حقيقة صامته عن الانتماء وتجعل الأفراد يشعرون أنهم داخل العائلة شكلياً فقط، ونخلص إلى أنّ العنف الرمزي هنا أفرغ الدّفء العائليّ وأبعد الأفراد عن الاندماج والشّعور بالانتماء رغم وجود الرّابطة الدّمويّة فهو حاضر في الشّكل وغائب في المعنى.

وهكذا يتّضح أنّ العنف الرمزي لا يظهر في الخطاب كقوّة مباشرة، بل يتسلّل عبر اللّغة والعلاقات ويشتغل في الخفاء فيؤذي الأفراد والمجتمع بكلّ هدوء، ولهذا عدّ أقسى أشكال العنف وأكثرها ممارسة وانتشاراً.

يظهر من خلال ما سبق أنّ خطاب العنف في رواية "تحت وطأة الدّم" يظهر على الجسد بصور مختلفة ليتدرّج نحو الدّاخل، ثمّ يتوسّع ليشمل المجتمع والسّلطة، فجسدياً يظهر على شكل: قتل بدافع سياسيّ أو دفاع عن النّفس والأسرة، ليتحوّل نفسيّاً إلى فقد وتوتّر داخلي وصراع وصدّات نفسيّة وشعور بالذّنب وخوف استباقي وإحباط، حيث تتزعزع الدّات من الدّاخل ممّا يؤثّر على العلاقات الاجتماعيّة، أمّا سياسيّاً فيتجلّى في حضور السّلطة سواء كان مباشراً أو غير مباشر بسبب الصّراع السّياسي السّائد والتّنافس حول السّلطة؛ ممّا ولّد اضطراباً في المجتمع والشّعور بغياب الحماية والعيش في جوّ التّهديد والصّراع نحو البقاء، أمّا الاجتماعيّ فكان عميقاً تسبّب في الشّعور بعدم الانتماء والتّفكك الاجتماعيّ، في حين اشتغل العنف الرمزي داخل اللّغة نفسها؛ وحول المعاني إلى حقائق قد تبدو طبيعيّة، لكنّها طريق ناعم وهادئ لفرض السّيطة والتّعنيف.

وانطلاقاً من هذا الاستنتاج نشير إلى أنّ التشكيلات التي يتوزّع عليها العنف في خطاب الرواية يخدم بعضها بعضاً، فهي متداخلة بسبب التداخل الحاصل بين أنواع العنف، إذ تقود كلها إلى نتائج تأثيرية ترتبط بالجانب الاجتماعي والنفسي للشخصية المُعنّفة، ولهذا نجد أنّها _ وإن اختلفت تشكيلاتها

_ تصنع خطابا سرديا مشحونا ومكتفا بدلالات العنف التي تهيمن على خطاب الرواية، وتبوح بتفاصيل صادمة عن خصوصية المرحلة التي تكتب عنها.

المبحث الثاني: الأبعاد النفسية والاجتماعية لخطاب العنف

يتجاوز العنف في الأدب حضوره كحدث مادي محض، ليصبح ظاهرة مركبة تتقاطع فيها الأبعاد النفسية (التأثير على البنية النفسية للأفراد) مع الأبعاد الاجتماعية (تفكك البنى الاجتماعية وإعادة تشكيل العلاقات) ففي رواية "تحت وطأة الدم" يُوظف العنف كعدسة تحليلية تكشف عن خصوصية تفاعل الذوات مع الأحداث العنيفة المتتالية التي عصفت بها في ظل الواقع المأساوي الذي كانت تمر به البلاد.

1. الأبعاد النفسية:

ارتأينا أن نتتبع بداية الأبعاد النفسية التي يجسدها خطاب العنف في الرواية من خلال الوقوف عند البنية الداخلية للشخصيات، وما تحمله من مواقف وأفكار وصراعات تعكس مدى تأثير العنف النفسي عليها، ذلك أن استنطاق خطاب العنف ضمن نسق الرواية يحيلنا مباشرة إلى تلك العوالم الخفية التي لا تظهر للقارئ على سطح النص، وإنما يجمع دلالاتها انطلاقا من الإيحاءات والإشارات التي تبثها الكاتبة عبر مختلف المحطات السردية.

وتعد الشخصية عنصرا محوريا في الخطاب الروائي لأنها الوجهة التي تنقل أفكار الرواية وأحداثها، ومن خلالها تتجسد المشاعر والصراعات التي تمنح النص حيويته وعمقه، ونتعرف على مظاهر الشخصية انطلاقا من بنيته سواء كان ذلك من خلال صفاتها وأفعالها أو من طرف السارد و«يتم التمييز بين هذه الملفوظات بحسب طبيعة المعرفة (المعلومات) التي تقدم الشخصية إجرائيا ويمكن التمييز بين ثلاث مواصفات: سيكولوجية (العواطف والأفكار...) ومواصفات خارجية

(المظاهر: كالقامة...) وأخرى اجتماعية (المهنة، الفقر، الغنى...)»¹، وهذه الموصفات تكون حاضرة بشكل متفاوت حسب الهدف الذي يرومه الكاتب حين يغلب جانباً على آخر.

وعلى مستوى رواية "تحت وطأة الدم" نجد أنّ الروائيّة تقتني لشخصياتها أوصافاً دقيقة خاصة الأوصاف السيكلوجيّة؛ أي ما يتعلّق بالمشاعر النفسيّة والأفكار والعواطف _ النَّاجمة عن حالات العنف النفسي _ والشخصيّة التي تبرز في هذا المضمار هي الشخصيّة الرئيسيّة "جواد" التي تقمّصت دور الراوي، إذ تحضر باعتبارها أهم شخصيّة في الرواية. فجواد هو شاب يافع في مقتبل العمر، ابن ضابط في الجيش، خلوق ومحبّ لعائلته، وهو متحمّل للمسؤوليّة، لكنّه عانى كثيراً أثناء العشريّة السوداء، وها هو يسترجع ذكرياته الأليمة في هذه الرواية التي جسّدت صراعات كثيرة عاشها، نورد منها المظاهر الآتية:

أ. الصدمة النفسيّة:

هي أوّل حدث غيّر من مجريات الحياة العائليّة الهادئة التي كان يعيشها مع أسرته، وكان سببها مشاهدته جثّة أخيه المذبوحة ليلاً وسط الظلام داخل البيت الذي من المفروض أن يكون الفضاء الحامي للأسرة، فمن الطّبيعي أن يتعرّض الشّخص لصدمة عندما يرى مشهد قتل شخص عزيز عليه، وكان هذا وسط ذهول كبير، أضف إلى ذلك مشهد سقوط الأمّ جثّة هامدة أمام عينيه «سقطت أمّي على الأرض جثّة هامدة لا تتحرّك، وكأنّ الزّمن نفسه قد تجمد في تلك اللّحظة...حيث

¹-محمد بوعزة، تحليل النص السردي: تقنيات ومفاهيم، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط 1، الجزائر، 2010، ص40.

كان كل شيء في الحياة يفقد معناه، وكأنّ الكون قد أغض عينيه عن تلك اللحظة الحزينة...»¹،

فالمشهد هنا يُبرز المراحل الأولى لاستجابة الشخصية للصدمة وهي كالاتي:

▪ الإنكار: يظهر من خلال محاولة السارد استيعاب ما حدث، إذ تبدو لحظة غير قابلة للتفسير

وكانّ العقل يرفض تصديق موت الأمّ، وهذا يعني أنّ العقل يرفض استيعاب الواقع المروّع، فالإنكار

هو أول آلية دفاعية يلجأ إليها العقل لحماية نفسه من الألم المفرط.

▪ التفكك النفسي: حيث يفقد السارد إحساسه بمعنى الحياة، فيتحول العالم من حوله إلى فراغ

ممتلئ بالحزن والضّياح، هذا التفكك يسمح للراوي بالمشاهدة دون أن يندمج مع الألم كلياً.

▪ التجمّد الحركي: يتجلّى في صورة زمن الكون المتوقّف الذي أغلق عينيه، وهي تعابير توحى

بالعجز من هول الصدمة.

▪ صدمة التجربة المباشرة: وتظهر أثناء مواجهة السارد للحظة مفارقة الأم بشكل قاس ومفاجئ

«لم يكن صوت الضربة مجرد صوت، بل كان كالطعنة التي تخترق القلب وتكسره... كانت الضربة

شديدة لدرجة أنني شعرت بها تتردد في كل عظمة من عظامي»²، وهنا الصدمة ليست شهادة على

عنف يطال آخر، بل هي تجربة مباشرة للعنف والفقد تولد انهياراً فورياً ليصبح صدمة حيّة مباشرة

تعاش لحظة بلحظة تاركة أثراً عميقاً في الذاكرة.

▪ صدمة الشهادة: وهي ثالث صدمة تحدث عندما يشهد جواد معركة والده مع الملتّمين «ثمّ

توقّفت، وكأنّ الزمن قد تجمّد لحظة أمامي، كان أبي ينتقل بين الهجوم والدّفاع في صراع يبدو

مستحيلاً مع مجموعة من الرّجال الملتّمين، كان جسدي يلتوي من شدّة الضّربات، لكن عينيه لم

¹ - منى قرشوش، تحت وطأة الدّم، ص73.

² - المصدر نفسه، ص72.

تفارقاني»¹، وهنا الشّهادة على عنف آخر يطال شخصا آخر مقرب كذلك وهو الأب، وهي من أكثر الصّدّامات تأثيرًا لأنها تحطّم الصّورة الحامية للأب، فتُشعر الشّاب "جواد" بالعجز المطلق على حماية والده باعتباره أحبّ شخص إليه.

ب. الفقد:

شعر "جواد" في كلّ لحظة مرّ بها في تلك الفترة بالحرمان من الدّفء العائليّ الذي افتقده بسبب الهجومات الإرهابيّة، وهروب العائلة من مكان إلى آخر بحثًا عن سبل النّجاة، حيث افتقد البيت الذي ترعرع فيه، وافتقد الجلسات العائليّة والسّهر الليلي، والضّحكات وكلّ التفاصيل الجميلة التي جمعته بالعائلة، إذ خيم الصّمت والسّكون والعزلة «تتعدّد أنواع الفقد والصّدمة، لكن الشّعور واحد، هو ذلك الألم الذي يغزو القلب ويكسر الروح... قد تكون الصّدمة نتيجة لرحيل أحد أحبّائك، لكن تبقى الذّكريات حيّة... والفقد لا يكون دائما بسبب رحيل الأجساد فقط، في بعض الأحيان بسبب اختفاء حلم أو خيانة شخص أو فقدان الأمان...»².

عاشت عائلة "جواد" الفقد بكلّ أنواعه: فقد الأخ والأخت (فاتن) وفقد الأب والأمّ، ليبقى مع أخته الصغرى يَنشُد النّسيان ويتمنى عودة الأمل إليه من جديد، لكن هيهات فجواد بقي كسير القلب جرّاء هذا الفقد إذ نجده يتساءل «هل نحن حقًا أحياء؟ أم أنّنا مجرد شظايا من ماضٍ لا يعود؟ ... لقد تعلم أنّ الفقد هو ما يشكّلنا وأنّنا في بحثنا عمّا فقدناه نجد أنفسنا أكثر تماسكا وأقوى من كلّ ما يحيط بنا»³، فجواد اليوم رجل في العقد الخامس همّه الوحيد هو لَم الشّمل العائلي، وتعويض

¹ - المصدر السابق، ص23، 24.

² - المصدر نفسه، ص389، 390.

³ - المصدر نفسه، ص516.

أخته بكلّ ما أوتي من قوّة، إلا أننا نلمح حسرته ومدى تأثير ذلك الفقد عليه في ثنايا خطابه، إذ بقي مشتاقاً لأهله لكنّه يحاول دائماً أن يداري ذلك.

ت. الحزن والألم:

يعدّ الحزن من أبرز الانفعالات التي تمرّ بها النفس البشرية، وتجعلها تشعر بالمعاناة والألم، وهو ما يؤثّر على الصحة النفسيّة والجسديّة للفرد إذ تكون نتائجها غير محمودة¹، وهذا ينطبق على "جواد" الذي يعيش حالة حزن كبير نتيجة الخيبات المتتالية عليه «مرّت الأيام على جواد ببطء شديد، وكأنّها دُهور من الزمن، كلّ يوم كان يمرّ عليه يثقل كاهله أكثر، ويزيد شحوب وجهه وتغيّر ملامحه، كانت عيناه تغرقان في بحر الحزن، وكأنّهما تعكسان كلّ الآلام التي عاشها، لم تعد الابتسامة تعرف طريقاً إلى شفّتيه، وأصبح وجهه مرآة لليأس والهموم»²، أي أنّ الحزن صار يعكس الحمل النفسيّ الثقيل الذي خيم على شخصيّة "جواد" وفاق قدرته على التحمل لتصبح ملامحه ناطقة عن حالته ومعبرة عن معاناته.

يعكس خطاب الرواية مدى سيطرة مشاعر الحزن على شخصيّة "جواد"، إذ تكرّرت كلمة (الحزن) مرّات عديدة في ثنايا الخطاب، للتأكيد على مدى تأثيره النفسيّ على "جواد" الذي لجأ إلى الصمت كوسيلة للبوح غير المُعلن، واتّخذ من جوارحه وسيلة للكلام «بدأت دموعه تتساقط على خديّه لكنّه لم يشعر بشيء... كانت الدّموع التي خرجت من عينيه تروي قصّة قلب ممزّق»³ فالدموع هي المظهر الخارجيّ للحزن الذي يختلج في الصدر ويعصف بالقلب.

¹ - عامر عبد الفتاح جود الله، سهيلة سفيان غنام، الانفعالات النفسية عند المرأة في القرآن الكريم، مجلّة الشريعة والدراسات الإسلاميّة، مج 13، ع 2، جامعة الجزائر 1، الجزائر، 2022، ص124.

² - منى قرشوش، تحت وطأة الدّم، ص422.

³ - المصدر نفسه، ص404.

كما يرتبط الحزن بكمية الألم الذي شعر به "جواد" بسبب حالات العنف النفسي غير المباشر الذي تعرض له، فهو يقاسي «الشعور بالعذاب الناتج عن تغلب العوامل الخارجية»¹ وعدم قدرته على مواجهة كل التحديات الصعبة التي اعترضت طريقه، فالألم يمثل رسالة خفية يصدرها الجسم أو القلب لتعبّر عن لحظة انكسار تمرّ بها الشخصية «بينما كان جواد يهمّ بفتح برّاد الموتى، كانت يداه ترتجفان بشدة، كأنهما تحملان ثقلا لا يمكن تحمّله في قلبه، كان يعصفه الإحساس بالألم»²، فالألم عند "جواد" هو شعور يتجاوز طاقة نفسه على التحمل، وهو ما عكسته كلمة (يعصفه) التي تشير إلى قوة عاتية تتجاوز حدود القدرة البشرية حينما يتعلّق الأمر بوفاة الوالدين. ففي كلّ مرّة تسرد لنا الكاتبة عن هذه الشخصية تظهر ألمها الصّارخ الذي يفوق كل التصورات، وهو مرتبط بحالة الفقد التي تولّد مشاعر الحزن ومن ثمّ يتعاضم حجم الألم المعنوي عند الفرد.

أمّا الشخصية الثانية التي كانت أكثر عرضة للعنف ونتاجت عنه أبعاد نفسية كبيرة فتتمثّل في الأخت "هبة"، وهي طفلة صغيرة وبريئة مرتبطة عاطفياً بعائلتها، أنهكت نفسيّتها الاعتداءات العنيفة المتكررة التي طالت العائلة، وقد عانت بعدها من صدمات نفسيّة ولّدت لها اضطرابات كثيرة، نورد أبرزها:

■ الاستعادة القهرية للذكريات: يظهر هذا من خلال تجسيد الطّبيب لحالة "هبة" حين يقول: «ما تواجهه ليس مجرد حزن عابر بل صدمة عميقة، تركت آثاراً نفسيّة قد تستمرّ فترة طويلة... الذكريات المؤلمة ستعود إليها في لحظات غير متوقّعة، وستشعر وكأنّها تعيش الحدث من جديد»³

¹ - جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر (د ط) تونس، 2014، ص392-393.

² - منى قرشوش، تحت وطأة الدم، ص90.

³ - المصدر نفسه، ص310، 311.

هذه الذكريات الاقتحامية تعدّ من الأعراض الأساسية لاضطراب ما بعد الصدمة النفسية، وهي تختلف عن الذكريات العادية التي يمكن استدعاؤها إراديًا، فالذكريات المرتبطة بالصدمة تعود قهريًا وبشكل حادّ ومؤلم كأنّ الواقعة تحدث مجددًا للشخصية.

■ **الخدر العاطفي:** تصف الكاتبة حالة الأخت «كانت الصغيرة رغم الهدوء الظاهر على وجهها، تعيش حالة من الارتباك الداخلي، عيناها الزجاجيتان كانتا تكشفان عن دوامة من الصراع النفسي العميق»¹، ويعتبر هذا الخدر آلية دفاعية يُغلق فيها العقل القنوات العاطفية لحماية نفسه من فرط الألم، فيُصبح الشخص في حالة من الفراغ العاطفي، غير قادر على الشعور بالفرح أو بالحزن أو بالخوف بشكل طبيعي². وهنا يصل تأثير العنف على المستوى النفسي إلى حدّ بعيد تفقد معه الشخصية سلامها الداخلي.

■ **الأفكار الانتحارية والشعور باليأس:** تذكر الكاتبة أنّ "هبة" من فرط الصدمة عاشت اضطرابا نفسيًا دفعها إلى التفكير في الانتحار بعد فقدان لذة الحياة، ويظهر هذا في حوارها الداخلي مع ذاتها «كانت تسأل نفسها هل يمكن حقًا أن يخرج أحد من هذا الألم؟ هل سيكون هناك وقت يعود إليه السلام؟»³، فهذه الأسئلة تعكس فقدان الأمل في إمكانية الشفاء، وهو من الأعراض التي قد تُؤدّي إلى أفكار انتحارية إن لم يتم تداركها أو معالجة صاحبها.

عطفًا على ما سبق، يمكن القول إنّ البنية النفسية التي رُكبت عليها الشخصيات في الرواية استطاعت أن تكشف عن مدى تأثير العنف على تركيبها الداخلي، وعلى دورها في تحريك الأحداث،

¹ - المصدر السابق، ص312.

² - ينظر: سيغموند فرويد، ما وراء مبدأ اللذة، ص85.

³ - المصدر السابق، ص314.

وإدارة الصراعات المتعددة، ودفع عجلة الحكي نحو مسارات مفتوحة، يعمل معها القارئ على البحث والتنقيب عن الدلالات والرموز والإشارات التي توصله للوقوف عند تمظهرات المواقف العنيفة التي تهزّ كيان الأفراد، وتجعلهم يعيشون حالة من الصدمة والقلق والخوف والألم المستمرة، يفقدون معها رغبتهم في الحياة، وهو ما تجلّى في الرواية من خلال تفاعل شخصياتها مع وقائع العشرية السوداء.

2. الأبعاد الاجتماعية:

يعبّر خطاب العنف عن مجتمع مأزوم يعيش اختلالاً عميقاً خلال العشريّة السوداء؛ حيث تزعزعت القيم وتفككت الروابط، وصار الإنسان يشعر أنّه مهدّد في كلّ تفاصيل فضائه اليوميّ، فرواية "تحت وطأة الدّم" لا تنقل العنف فقط، وإنّما تفصح أسبابه من صراع على السّلطة وانهيار الثقة بين الأفراد والخوف الجماعيّ الذي يجعل الجميع في حالة ترقّب دائم، إذ يتحوّل العنف إلى ظاهرة جماعيّة لا تخصّ الفرد ذاته.

ولعلّ أحسن ما يمكن أن نجسّد به حالة الاضطراب هذه هو الأسرة، كونها تعتبر النواة الأساسيّة التي تنظّم العلاقات وتوزّع الأدوار وتنتج الهويّة الاجتماعيّة للأفراد؛ حيث تسلّط الكاتبة "منى قرشوش" الضوء على تفكّك هذه البنية الأسريّة تحت وطأة العنف وشدّته، واستطاعت أن تجعل القارئ يقف عند تجليات العنف، ويتفاعل مع تفاصيله المبتوثة في ثنايا الوقائع المأساوية التي تعرّضت لها أسرة "جواد"، وسننتبّع هذه التفاصيل ضمن خطاب الرواية وفق العناصر الآتية:

أ. بين التماسك والتفكك:

يُظهر خطاب الرواية عائلة "جواد" كأسرة صغيرة تعتمد في نمط عيشها على ما يجمعها من روابط حميمية وقرابة دموية كغيرها من الأسر الجزائرية، إلّا أنّ ما كان يميّزها عن غيرها هو حالة الغموض التي كانت تلقّاها «عائلة تبدو عاديّة لكنّها تحمل في أعماقها غموضاً لا يُفصح عن نفسه

بسهولة... علاقتنا كعائلة كانت غريبة، متشابكة كالخيوط، بل كل خيط يشد الآخر بطريقة لا يفهمها إلا من عاش بيننا.¹ فالأسرة كانت تتسم بالتناغم المرهون بخصوصية أفرادها، ما يعكس تماسكا بين مجموعة الأفراد الذين يشكّلونها، وهذا ما عبّرت عنه الكاتبة في قولها (كل خيط يشد الآخر...) لكن الأمر السلبي هنا أنّ هذا التشابك الغريب يُؤدّي إلى فقدان الحرّية، وكأنّهم يعيشون داخل شبكة لا يستطيعون الخروج منها، أي أنّ العلاقات تربطهم وتقيّدهم في الآن ذاته.

وقد استطاع التصعيد الإرهابي في الممارسات العنيفة أن يؤثّر على تماسك الأسرة، ويهدّد وحدتها ويدفعها لتعيش نوعا من التفكك المخيف «انقلبت حياتنا في تلك اللحظة رأسا على عقب، كلّ ما كنا نعرفه، كلّ ما كنّا نعتقد أنّه ثابت ومستقر تبدّد في لحظة واحدة»²، فانقطع حبل السكينة بينهم، وغاب التماسك ليحلّ محله نوع من التشظي الذي ينأى عن كونه مجرد انفصال جغرافي، ويمتد ليكون تفككا اجتماعيا يفقد معه كلّ فرد شعوره بالانتماء للوحدة الأسريّة. وهذا التفكك يتجلّى باعتباره أحد نتائج العنف على تركيبة المجتمع الجزائري حينها.

ب. أنموذج الأم المحاربة:

ترتبط الأم منذ الأزل بدلالات الحنان والحب والرعاية والسلام، لكن في مشهد المعركة الذي يجسده خطاب الرواية تتحوّل الأم إلى محاربة «في تلك اللحظة حيث كان الرجل على وشك أن يغدر بوالدي تتدخل أمي فجأة كالمارد»³ وهذا التحوّل والانقلاب في الدور الجندي يطرح عدة تساؤلات: هل القوّة القتاليّة أنثويّة؟ أم أنّها حكر على الذكور؟ حيث تخبرنا تقنية تصوير المشهد التي اعتمدتها

¹ _ منى قرشوش، تحت وطأة الدم، ص 5_9.

² _ المصدر نفسه ص 17.

³ - المصدر نفسه، ص 27.

الروائية أنّ القوة ليست حكراً على الذكور؛ إذ تظهر القدرة الفعّالة على العنف من قبل الأمّ والتي فاقت قدرة الأب في تلك اللحظة.

كما يُطرح تساؤل آخر مفاده: هل الأمومة تتعارض مع العنف؟ ليجيب خطاب الرواية أنّ الأم لا تتوقف عن كونها أمّاً عندما تمارس العنف، لأنّها تمارسه بدافع حماية زوجها وأطفالها، وهذا يعيد تعريف الأمومة لتشمل الحماية العنيفة إلى جانب الرّعاية الحنونة حين يتعلق الأمر بشؤون أسرتها. وهنا يكشف الوقوف عند البعد الاجتماعي للعنف عن ضرورة توجيه البنية المعرفية للمجتمع نحو اعتماد المقولات التي تُنصّف المرأة الأم حين تتخذ من العنف وسيلة لحماية أسرتها.

ت. الصّورة النمطية:

تعاني أسرة "جواد" من عزلة اجتماعيّة فرضتها الصّورة النمطيّة السلبية التي شكّلها المجتمع عنها، بسبب عمل الأب ضمن أجهزة الأمن «لم يكن لنا أقارب نعرفهم جيداً كنا نلتقي بهم في المناسبات النادرة»¹، يمثّل هذا نوعاً من الاستبعاد الاجتماعيّ، فالأسرة تعامل الآخرين بحذر، والمجتمع يبادلها المعاملة ذاتها، فالخطر المحتمل كون الأب ضابط في سلك الأمن يرغمها على الحرص الشّديد في تحديد العلاقات والانعزال عن المجتمع، وهذا يحرمها من الدّعم الاجتماعي الصّوري في ظل حالات العنف والتأهب التي فرضتها العشرية السوداء.

يعمل هذا الوضع على إضعاف الرابط الاجتماعي بالرغم من تواجد الأسرة ضمن نطاقه، وهنا يتشكّل العنف الرمزيّ الخفيّ حسب "بورديو" إذ لا أحد يستطيع أن يعلن مباشرة إبعاد الأسرة من الرابطة الاجتماعية المشتركة، لكنّ تشكيل تلك الصورة النمطية وحالات التجنّب تعلن ذلك، وتحضر

¹ - المصدر السابق، ص7.

كأثر لاختلاف الهابيتوس (أنماط العيش، التفكير، المعتقدات، التصورات...) ¹ فالأسرة مختلفة عن غيرها، وتصلها مسافة تصنيفية عن غيرها بفعل هذا النوع من العنف.

وتؤكد الوقائع التاريخية التي وصلتنا عن تلك الفترة أنّ هذه الصورة أدّت إلى حدوث خلل على مستوى البنية الاجتماعية التي عاشت في ظلّها الأسر الجزائرية في تلك المرحلة، إذ شكّل المجتمع صوراً نمطية سلبية عن كل عائلة تربطها علاقة ما بأجهزة الدولة (شرطي، جندي، مؤدي للخدمة الوطنية، عميل...) وهذا يرجع لحالات التعنيف الشديدة التي كانت تتعرض لها الأسر من قبل الجماعات المسلحة دون أن يكون لها أي ذنب في ذلك.

ث. أزمة الهوية والانتماء:

عانت الأسر الجزائرية خلال فترة التسعينات من عدم الاستقرار بسبب العنف والخوف والتهديد، ولم يكن لها ملجأ سوى الفرار؛ حيث تشردت العديد من العائلات، فترزع الإحساس بالانتماء للمكان وللمجتمع، لأنّ الأمان هو الذي يجعل الفرد مستقرّاً، فبغايه يتلاشى الشعور بالانتماء، ويحل محله الشعور بالغربة داخل الوطن، لذا يجد الإنسان نفسه يتنقل بين الحذر والصمت محاولاً الخلاص دون التفكير في المستقبل، ومع الوقت تبدأ هويته بالتشظي وتتفكك تدريجياً بين ما كان عليه قبل العنف وما أصبح عليه بعده.

تعدّ أسرة "جواد" مثالا لحالة اللااستقرار التي طبعت العائلات الجزائرية في تلك المرحلة، إذ تحولت الحياة اليومية عندها إلى محاولة مستمرة لإعادة تعريف الذات في عالم لم يعد ثابتاً، خاصة بعد تراجع الروابط الاجتماعية التي تجمعها بغيرها، وانتشار الصورة النمطية السلبية عنها، فعانت

¹ _ ينظر: بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، تر: سلمان قعفراني، المنظمة العربية للترجمة، ط 1، لبنان، 2009، ص 48.

من التشرّد القسري «كنا دائما على الطريق ننتقل من ولاية إلى أخرى، وكأنا نحاول الهروب من شيء يلاحقنا بلا كلل، أو ربّما نبحث عن شيء ضاع منّا منذ زمن»¹، فهذا التشرّد ليس اختيارا من الأسرة، بل هو إجبار فرضته الظروف الأمنية للبلاد، إنّه العنف الذي حرم الأفراد حقّهم الأساسي في الشعور بالانتماء والاستقرار المكاني، وفي هذا الشأن يقول الرّاي: «لم تكن لنا جذور، كنا مثل أوراق شجر تلاحقنا الرّيح، تسقط في مكان وتنهض في آخر دون أن تسأل لماذا»² ومع غياب عنصر الانتماء تفقد الأسرة ثباتها، ويصبح من الصعب تحديد المرجعيّة التي تحقّق لها الاستقرار، فالأرض ليست أمانا والوطن لم يعد حضنا يحتويها، فقد فقدت ارتباطها بمكانها الأصلي بعد كثرة التنقل والترحال، وهنا تتجرّد من هويتها المكانية التي تعتبر جزءا أساسيا من هويّة الفرد، ففقدانها يُحدث أزمة هويّة، ذلك أنّ المكان يختزل الذّكريات والعلاقات الاجتماعية بما تحمله من معاني عميقة تبتعد به عن كونه فضاء جغرافي محظّ³، فالافتلاع من المكان يؤدي إلى فقدان هذه الشّبكة بأكملها، وهذا يعني أنّ الهويّة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمكان في الرواية، فكلّما كان المكان مضطربا ولّد شعورا بالاعتراب وأزمة في الهوية.

يظهر لنا من خلال استنتاج الأبعاد النفسيّة والاجتماعيّة لتوظيف خطاب العنف في رواية "تحت وطأة الدّم" أنّ العنف لم يكن مجرد فعل مادّي، بل مثل ظاهرة خطيرة حطّمت البنية النفسيّة للأفراد، وأدّت إلى تفكّك العلاقات الأسرية والبنى الاجتماعيّة، وأعادت تشكيل الهويّات الفرديّة والجماعيّة، فقد استطاعت الكاتبة "منى قرشوش" من خلال سرد متقن للأحداث وهندسة نفسيّة

1 - منى قرشوش، تحت وطأة الدم، ص 5، 6.

2 - المصدر نفسه، ص 7.

3 - ينظر: عبد الله إبراهيم، السرد والاعتراف بالهويّة، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2011، ص 10.

عميقة للشخصيات أن تجسّد الصدمة النفسيّة بكلّ تعقيداتها من الإنكار إلى التفكّك؛ ممّا أحدث خلا في البنى الأسريّة تحت ضغط العنف إلى جانب فقدان الهوية والانتماء في ظلّ الاقتلاع الجغرافي والاجتماعي، فكان خطاب الرواية بمثابة شهادة تاريخيّة تعكس البعد الجماعي للصدّات التي تلقّاها المجتمع الجزائريّ في تلك المرحلة.

المبحث الثالث: التّقنيات السّردية لتمثيل العنف

لا تقوم رواية " تحت وطأة الدّم " على عرض العنف بوصفه مادّة حكاويّة مباشرة فحسب، وإنّما تجعله مبدأ منظمًا لبناء السّرد وطريقة ترتيب الأحداث في النّص، فالقارئ لا يتلقّى الأحداث في صورة تقرير مباشر أو تاريخيّ عن العشريّة السّوداء، ولا على شكل شهادة حيّة لعائلة عاشت المعاناة خلال هذه الفترة، بل يواجه حدثًا روائيًا يُكتب من عمق الجرح، ويُعيد ترتيب هذه المقاربة الإنسانيّة من منظور شخصيّة عاشت الخوف والفقد والتّهديد، لذلك تبدو تقنيّات السّرد في الرّواية وثيقة الصّلة بطبيعة الموضوع، فالعنف لا يظهر في المضمون فقط بل يتجسّد في التّشظي السّردية، وفي التكرار، وفي بطل المشهد، وفي الوصف الحسيّ الذي يحوّل المكان والزّمان والجسد إلى علامات دالة على الانكسار، ليقول العنف كلمته في طريقة بناء الخطاب الروائي والتعبير عن مقاصده.

ينطلق السّرد من ذاكرة الراوي وهو أب يستعيد طفولته ومراهقته في ظلّ حياة عائليّة محاصرة بالرحيل والخطر والصّمت «أبي كان هو القائد الصّامت لرحلتنا... أخي الذي كان في مثل سنّي، عاد إلينا بعد أن أنهى خدمته الوطنيّة، لكنّه لم يعد كما كان... كان يقضي ساعات طويلة صامتًا... أختي المراهقة كانت في عالم آخر تسير بيننا جسدا، لكنّ عقلها وقلبها كانا في مكان آخر تماما... لم تكن لنا جذور، كنّا كأوراق الشّجر تلاحقنا الرّيح، تسقط في مكان وتنهض في آخر دون أن

تسأل لماذا؟...»¹، فهذا المنظور المزدوج يمنح الرواية بعدا خاصا، فالزاوي يستحضر الأحداث بعين الطفل الذي لم يكن يفهم كل شيء، لكنّه يعلّق عليها أيضا بوحي الرجل الذي أدرك لاحقا حجم المأساة، وهنا تتشكل جماليّة الرواية من المسافة بين البراءة والمعرفة، وبين الذاكرة والتحليل، وبين الحدث العنيف وأثره النفسي الممتد؛ ممّا يجعل الخطاب السردى للرواية يمزج بين تقنيّات سردية متعدّدة، ارتأينا أن نقف عند أكثرها تمثيلا للعنف في نسق الرواية.

1. السرد المتشظي:

يرتبط التشظي في الرواية بطبيعة الذاكرة الصادمة، فالأحداث لا تُقدّم دائما في خطّ زمني متتابع، بل تأتي في شكل إشارات واسترجاعات، وقفزات بين الحاضر والماضي. يبدأ الزاوي من موقع لاحق حيث صار أبا، ثمّ تعود به الذاكرة إلى طفولته، وإلى التّقلّب بين الولايات، وإلى الرسالة الغامضة، ومقتل الأخ، والهجوم، وموت الأخت فاتن والوالدين، ومرض أخته هبة، وما تركته هذه الوقائع من آثار «كنت شابا أحمل أحلاما في صدري لا أعرف إن كانت تخصني وأعيش في ضلّ عائلة تبدو عادية... قبل عشرين سنة كنت طفلا صغيرا، أنظر إلى والدي بعينين مملوءتين بالإعجاب والانبهار، كان يقف أمامي بزيّه الرسمي يفيض هيبة ووقارا... واليوم لم أعد أراه فقط في ذكرياتي، بل شعرت به في داخلي... كنت أقف بين الماضي والحاضر، بين غياب والدي الذي علّمني القوّة وحضور ابني الذي يمنحني الأمل... لازلت أتذكّر حين رنّ الهاتف فجأة وكسر عدوان الصمت... توقّف قلب والدي... واليوم أنا أقف مكانه أدركت أنّي لم أكن أهرب من ذكرياته»².

¹ - منى قرشوش، تحت وطأة الدم، ص5، 6.

² - المصدر نفسه، ص 5-13.

إنّ هذا الانتقال المفاجئ بين الماضي والحاضر، وتداخل الذكريات مع الحدث الآني، وغياب التسلسل الزمني الواضح ما هو إلا ارتباط التشظي بالصدمة النفسية والعنف اللذين تعرّض لهما الراوي. فبالرغم من أنّ البناء متقطع، لكنّه لا يعبر عن خلل في التنظيم، بل يعكس طريقة عمل الذاكرة حين تكون محمّلة بالرعب، فهي لا تستحضر الماضي وإنما تعيد بناءه على شكل صور منفصلة وكأنّ كلّ صورة تحمل ألما خاصًا بها.

ويسمح السرد المتشظي بإبقاء القارئ قريباً من الراوي، فيتفاعل مع ما جرى له من أحداث مؤلمة ويشعر بها، فالطفل يرى العلامات ولا يفهم أسبابها، لكنه استطاع تفسيرها عندما صار واعياً (الراوي) وبذلك تبني الرواية معنى العنف بالتدرّج، فالعنف هنا ليس انفجاراً مفاجئاً، وإنما إشارات سابقة على شكل رموز لم تكن الشخصيات قادرة على فكها واستيعاب مضمونها في حينها، فالراوي لا يتكلّم من موقع واحد ثابت، بل من موقعين متداخلين: الفرد الذي عاش التجربة القاسية، والآخر الذي يرويها ويمنح النصّ عمقا نفسياً؛ لأنّ النصّ يصبح محاولة لترميم الذات الإنسانية عبر حكي الأحداث «لكنني لم أكن ذلك الطفل الناظر بإعجاب، بل كنتُ أنا الأب، بزيّ العادي الذي لا يحمل أي شيء خارق، أقف أمام أطفالي الذين يُحدّقون بي بنفس النظرة التي كنتُ أحتفظ بها لوالدي، شعرتُ بتيّار عميق يمرّ داخلي، يعيدني إلى تلك اللحظات التي كنتُ أراها مجرد تفاصيل يومية...»¹ غير أنّ هذا الترميم لا يلغي الكسور، بل يكشفها ويجعلها جزءاً من بنية الرواية.

¹ _ المصدر السابق، ص10.

وتجدر الإشارة إلى أنّ تقنيّة التشظي تخلق من الناحية الفنيّة توتّرًا مستمرًا في نسق القراءة لأنّ القارئ لا يحصل على الدلالات مرّة واحدة، بل يجمع العلامات كما يجمع الراوي أجزاء ذاكرته، ممّا يجعله يتشوّق للقراءة ومعرفة المزيد من الأحداث، وبهذا تتحوّل القراءة إلى إعادة تركيب لما كان.

2. التباطؤ الزمّني:

يعدّ إبطاء الزّمن من أبرز التقنيات التي استخدمتها الروائيّة أثناء التعبير عن لحظات الصّدمة فعندما يُواجه الراوي حدثًا عنيفًا، لا يمر السّرد عليه بسرعة، بل يتوقّف عند تفاصيل الجسد والضوء والصّوت وحركة الشّخصيّات، وثقل الهواء، إذ لا يكتفي الراوي بنقل مشهد خروج الجثث من المستشفى (جثة الأب والأم والأخت فاتن) وإنّما يجعله بطيئًا وثقيلًا كأنّ الزّمن نفسه يشعر بالحزن والثقل.

وفي هذا المشهد يركّز السّرد على آثار العنف لتصنع وتيرة الحدث، فيذكر الأصوات الخافتة، والأنفاس المتعبة، وحركات الأيدي المرتجفة، وحتى صوت الحفر، ليشعر القارئ بأنّ اللّحظة طويلة ومؤلمة «عندما بدأ الأطباء والممرضين في تحضير الجثث للخروج من المستشفى كان الجوّ مشبّعًا بصمت ثقيل، يوافقه صوت الأنفاس المتبعثرة والقلوب المكسورة... وبينما كانت توضع في القبور، بدأ الزّمن يتباطأ، وكأنّ ثقل اللّحظة قد فرض نفسه على الكون بأسره، كانت الأيدي تتعامل بحذر مع الأجساد الميّتة، كانت كلّ حركة بطيئة مشبّعة بالحزن، كان الصّوت الوحيد الذي يملأ المكان هو صوت الحفر»¹، فهذا التّباطؤ يكشف عن العنف بطريقة أعمق؛ لأنّه حين يمرّ على كل صغيرة وكلّ صوت خافت يجعله محمّلًا بالألم، وكأنّ الزّمن نفسه يُشارك الشّخصيّات حزنها، وبهذا لم يعد العنف مجرد موت أو فقد، بل إحساسًا ثقيلًا يسيطر على المكان ويجعل

¹ - المصدر السابق، ص 102، 103.

اللحظة أكثر قسوة وألماً. كما أنّ التّباطؤ يجعل القارئ يضطرّ إلى البقاء داخل اللحظة كما بقي الرّأوي عاجزاً عن تجاوزها، وهنا تخلق هذه التقنية جمالياتها ضمن خطاب الرواية.

وللتّباطؤ الزّمني وظيفة نفسية واضحة، فالصدمة تجعل الزّمن يتجمّد في وعي الضّحية، لتبدو الثّواني طويلة وتتحوّل التفاصيل الصّغيرة إلى صور لا تمحى، لذلك يصبح بطء السّرد تجسيدا لاضطراب الإدراك في لحظة خوف، فالرّأوي لا يستطيع فهم الحدث مباشرة، فيتعلّق ذهنه بالتفاصيل التي لا تؤخّر الأحداث بل تكشف أنّ الذاكرة المصدومة لا تحفظ الحدث بوصفه خبراً، بل تحفظه بوصفه مشهداً حسّياً متكرّراً، يمرّ ببطء وثقل يتجاوب مع ثقل الصدمة.

وتجدر الإشارة إلى أنّه في مقابل هذا البطء، تلجأ الرواية أحياناً إلى التسارع عند مشاهد الهروب أو الارتباك؛ حيث تتلاحق الأفعال وتضيق الجمل، فيحسّ القارئ أنّ الشّخصية مدفوعة بقوة أكبر منها، غير أنّ التّباطؤ يظلّ التقنية الأكثر التصاقاً بمشاهد العنف، كونه يحوّل اللحظة السريعة إلى مقاطع ناطقة داخل السّرد.

3. السّرد المتكرّر:

يظهر السّرد المتكرّر في الرواية ضمن مستويات متعدّدة، كتكرار صور الدّم والظلام والخوف، وكذا تكرار العودة إلى اللّيلة المفصلية كما يتجلى في قول السارد: «كانت تلك اللّيلة هي اللحظة التي تعلّمت فيها معنى الفقد، ليلة موت والدي... بدت اللّيلة وكأنّها فصل آخر من الهدوء المعتاد الذي يغلف قريتنا... أخي كان مستلقياً في مكانه، جسد بلا حراك...»¹ فالسرد هنا يكرّر ذكر اللّيلة التي قتل فيها الأخ ثم الأب والأم والأخت فتن، إضافة إلى تكرار الأسئلة التي لم يجد الرّأوي لها جواباً في طفولته، وهذا التكرار ليس حشواً لغوياً، بل آلية دالّة على استمرارية الصدمة، فالحدث

¹ - المصدر السابق، ص 12-17-19.

العنيف لا ينتهي بانتهائه الزمني، إنّه يعود في الذاكرة: وفي الأحلام، وفي العلاقة بين الأبناء، وفي الخوف من فقدان الحماية.

كما يحضر السرد المتكرر من خلال تكرار ذكر الرحلات والتنقل بين الولايات، وهو ما يمنح خطاب الرواية تكراراً دائرياً، فالعائلة تتحرك كثيراً لكنها لا تصل إلى أمان حقيقي ووجهة نهائية، وكلّ انتقال يبدو كأنه بداية جديدة، لكنّه يحمل الخوف نفسه «كنا دائماً على الطريق ننتقل من ولاية إلى أخرى، وكأنا نحاول الهروب... من شيء يلاحقنا بلا كلل لكن الغموض الحقيقي لم يكن فينا، بل في الرحلات نفسها، كنا ننتقل دائماً في الظلام..... نخشى أن يرانا أحد»¹، فهذا التكرار المكاني يعكس عجز الشخصيات عن الخروج من دائرة العنف، فهي تُغيّر المكان غير أنّ الخطر ينتقل معها، لذلك يُصبح الطريق علامة على الدوران لا على التقدم والوصول إلى الأمان.

كما تؤدي العودة المتكررة إلى صور بعينها وظيفية إيقاعية أيضاً، إذ تخلق داخل الرواية لازمة دلالية تُشبه النبض الداخلي للنص، فالدم والليل والصمت لا تظهر كصور منفردة بل تعود في كلّ مرة بدلالة عميقة، لأنها تكون قد تراكمت في ذاكرة القارئ كما تراكمت في ذاكرة الراوي، ومن ثمّ يتحول التكرار إلى وسيلة لبناء المعنى لا إلى مجرد إعادة لفظية.

4. الوصف:

الوصف في الرواية ليس عنصراً تزيينياً بل أداة لتحليل الأحداث والمشاهد، فالكاتبة تصف المكان لكي تكشف هشاشة الأمان، وتصف الجسد لكي تُبرز أثر العنف، وتصف الصمت لكي تجعل غير المرئي مرئياً، فالببيت مثلاً لا يظهر دائماً بوصفه فضاء عائلياً مستقرّاً، بل يتحوّل إلى

¹ _ المصدر السابق، ص 05-07.

مكان مهدّد يخترقه رنين الهاتف، أو طرق الباب، أو انتظار خطر مجهول «...لم تكن ردة فعله شيئاً مألوفاً، بل كانت أشبه بانفجار صامت أحدث شرخاً في جدار الطمأنينة الذي كنّا نعيش خلفه...لازلتُ أذكر تفاصيلها كأنّها حدثت البارحة، كان الوقت متأخراً، والبيت ساكناً إلا من صوت عقارب الساعة، حين رنّ الهاتف فجأة وكسر عُذوان الصمت»¹، يحضر الوصف هنا كوسيلة تهيء القارئ لاستقبال آثار العنف، فالجو العام للبيت ومشهد رنين الهاتف يحوّل الوضع إلى حالة ترقّب لهذا الخطر الذي قد يجلبه فعل الرنين.

يعتمد الوصف في خطاب الرواية على كثافة حسية تجمع بين عناصر متعدّدة مثل: الضوء الشاحب، الظلام، البرودة وأصوات الليل وثقل الهواء وحركة الأجساد والوجوه التي لا تُفصح عن كلّ شيء، ما يجعل من العنف تجربة شاملة لا ترتبط بالجسد وحده، بل تُصيب الحواس كلّها، فالخوف مثلاً يُسمع في رنين مفاجئ، ويُرى في وجه الأب «رأيت وجهه يتجمّد...ثمّ بدأ اللون يتسرّب من وجهه تدريجياً، ليصبح شاحبا كقطعة ورق في يده...»²، حيث قدّمت هذه الأوصاف تقصيلاً لمشهد عنيف، يولد من حجم الخطر الذي يستشعره الأب، ويظهره السارد على تقاسيم وجهه، لتتشكّل صورة واضحة عن حالة ذعر وخوف زادت الوضع سوءاً. ومن هنا يكتسب الوصف وظيفة تجسيدية، إذ ينقل العنف من الفكرة العامة إلى التجربة الملموسة، وهي وظيفة أشار إليها "فيليب هامون" (Philippe hamon) عند حديثه عن الوصف مؤكداً أنّه ليس مجرد تزيين خارجي للحدث بل يشكّل نظاماً كلياً يبني دلالة النص³، ويحسن فعاليته التأثيرية.

¹ - المصدر السابق، ص 12-16.

² - المصدر نفسه، ص 14.

³ - Voire : philipe hamon, descriptif hachette, Paris, 1993, p4.

كما يبرزُ الوصف في رسم الشخصيات كذلك، فالأب يوصف بملامح الصلابة والصلمت والقلق، والأخ يوصف بالهدوء والتغير بعد الخدمة الوطنية، والأم تظهر في توترها وخوفها وقدرتها على التحمل، وهذا ما تعكسه المقاطع الآتية:

- «كان أبي ذا قلب حنون، لكنّ حنانه كان مُغلّفًا بحزم صارم لا يلين، كان عادلا في عقابه...»¹.
- «...أما أخي فكان نقيضي تماما، هادئا، متزنا وثقيل الطّباع، ربّما لهذا السّبب كان أبي يجدني مصدر قلق دائم على عكس أخي الذي بدا كأنّه نسخة مصغّرة منه»².
- «كانت أمي تلك المرأة التي لطالما اعتقدت أنّها لا تُقهر، تقف هناك منكسرة، على حافة الانهيار، وكأنّها تعاني من ثقل العالم كلّ... كانت صخرة صلبة في حياتنا وتحولت إلى كائن محطّم»³.

لا تقدّم هذه الأوصاف الشخصيات فقط بل تكشف عن تفاعلها مع حالات العنف، فالشخصية في الرواية تُعرف من خلال نظراتها وحركاتها وردود فعلها. وقد لاحظنا أيضًا أنّ الوصف في الرواية يميل إلى الاختصار في بعض المواضع وإلى التفصيل في مواضع أخرى، فعندما تكون الحياة اليومية عادية نسبيًا يأتي الوصف موجزا وهادئا، أمّا حين يقترب الخطر والعنف فيمتدّ الوصف وتزداد كثافته. وتتبع أهمية هذه التقنيات من كونها لا تعمل منفصلة، بل تتداخل لتشكيل خطاب روائي منسجم، لذلك فإنّ تحليل هذه العناصر لا يهدف إلى تفكيك الرواية إلى أجزاء جامدة، بل إلى بيان الطريقة التي تجعل بها الكاتبة الشّكل السّردي مطابقا لطبيعة التجربة العنيفة، فما دام العنف في الرواية تجربة

¹ - منى قرشوش، تحت وطأة الدّم، ص7.

² - المصدر نفسه، ص7.

³ - المصدر نفسه، ص70.

تفقد الإنسان توازنه، فمن الطبيعي أن يأتي السرد هو الآخر متقطعاً، قلقاً، مضطرباً، مشحوناً بالصّور والدلالات، وهنا تكمن جماليته وفرادته الابداعية.

ويمكن أن نستخلص من وقوفنا عند تجليات العنف في متن رواية "تحت وطأة الدم" أنّ العنف لم يظهر بوصفه حادثة معزولة أو طارئة، وإنّما تجسّد كقوة مهيمنة تتحكم في مسار الشخصيات وتوجّه حركتها داخل الخطاب؛ حيث كشفت القراءة عن تعدّد أشكال العنف وتداخلها، بما يعكس عمق الأزمة التي تعيشها الشخصيات داخل واقع مضطرب. كما توصلنا إلى أنّ العنف قد ترك آثاراً عميقة في البنية النفسية والاجتماعية؛ إذ ولدّ الخوف والتوتر والاعتراّب، ودفع الشخصيات إلى حالة من الانكسار والتشظّي الداخلي ليصبح العنف أداة تكشف اختلال العلاقات الإنسانية واضطراب الواقع الاجتماعي.

أمّا على المستوى الفني، فقد تبيّن لنا أن البناء السردى اعتمد على مجموعة من التقنيات السردية لتجسيد خطاب العنف ومنحه بعداً أكثر تأثيراً وواقعية، فقد أسهمت في نقل التجربة العنيفة من الدّاخل وكشفت ارتباك الشخصيات وهشاشتها النفسية، وعبرت عن تفكّك الوعي واضطراب الزمن تحت وطأة الصدمة، كما منحت مشاهد العنف كثافة تصويرية جعلت القارئ يعيش قسوة الحدث وتفاصيله، وهكذا تداخلت الأبعاد الدلالية والفنية لتشكّل خطاباً روائياً يجعل من العنف تجربة إنسانية وجمالية تتجاوز حدود السرد المباشر.

خاتمة

خاتمة

سارت الرواية الجزائرية المعاصرة على نهج الرواية العربية، حين عملت على الدعوة إلى التغيير وإعلان رفضها للعنف؛ وانطلاقاً من هذا رصدت تجليات العنف المسيطر على الأفراد والمجتمعات بمختلف أشكاله، واستطاعت أن تقف عند عمق التجربة الإنسانية التي عايشها المجتمع الجزائري إبان العشرية السوداء، والتي كانت مثقلة بآثار العنف ومخلفاته على مستوى البنية النفسية للأفراد وعلى مستوى البنى الاجتماعية كذلك. وقد استندت الرواية في ذلك إلى بنية سردية معقدة جمعت بين الواقعي والمتخيّل، واستطاعت أن تلامس أفق انتظار القارئ وتشبع شغفه في الكشف عن البنى العميقة المتحكمة في إنتاج هذا النوع من الخطابات، وترصد ملامسات التجارب العنيفة في شتى مظهراتها. وهذا ما سعينا إلى كشفه من خلال دراستنا هذه التي تناولنا فيها رواية "تحت وطأة الدّم" لمنى قرشوش مركّزين على تتبع تمثّلات العنف في نسق الخطاب بمختلف تداعياته. وقد أفضى بنا البحث إلى الخروج بجملته من النتائج، نردها كآلاتي:

- يعكس خطاب العنف تلك الكفاءة التعبيرية الخاصة، التي تستطيع من خلالها اللغة أن تحوّل الكلمات من أداة للتواصل الوظيفي إلى وسيلة لإنتاج أسلوب هجومي عنيف، يفرض هيمنته على المتلقي فيبني له فضاء مشحوناً بخطابات عنيفة، تعبّر عن الهيمنة والتسلّط وتجاوز الحدود أمام خصوصية الذات والمجتمع.

- العنف في رواية "تحت وطأة الدّم" ليس مجرد محتوى حكاوي، وإنّما هو بناء سردي متكامل، تندمج فيه مستويات النص عبر تشكيلات عنيفة متعدّدة؛ فهو يبدأ من المستوى الظاهري الذي تعكسه مشاهد العنف الجسدي كالدّبح والقتل والضرب، مروراً بالمستوى

الدّاخلِي الذي تخبر عنه الآثار المترتبة عن العنف النفسي والاجتماعي والسياسي من خوف وألم وصدمة وتفكّك وصراع، وصولاً إلى المستوى الخفي الذي يعكسه العنف الرمزي بما يحمله من إحياءات ودلالات غير مباشرة.

■ كشفت الأبعاد النفسية لخطاب العنف في الرواية عن الكيفية التي استطاع بها العنف أن يحدث تحولات جذرية في هويّات الشخصيات، ويزرع بنيتها النفسية من خلال هدم سلامها الدّاخلِي واستقرارها العاطفي، جرّاء تداعيات الصدمة والإنكار والجمود والخوف والحزن والصراع الذي جسّدته الشخصيات في مظهرها السيكولوجي.

■ أسهم الوقوف عند الأبعاد الاجتماعية للعنف في تسليط الضوء على الجوانب المظلمة في كيان المجتمع الجزائري إبّان العشرية السوداء، إذ ظهر العنف كعدسة تحليلية تكشف تفاصيل الواقع الاجتماعي المتأزم، وتنفذ البنى الفكرية والثقافية التي عملت على تشكيل صور نمطية إقصائية تهمّش الأفراد وتفكّك الروابط الاجتماعية.

■ تقترب رواية "تحت وطأة الدم" من أدب الشّهادة _ التاريخيّة _ الذي يحفظ الذاكرة الجماعية من النسيان، إذ استطاعت مشاهدتها أن تعيد صياغة الواقع، وتثبت سنوات الأزمة كتاريخ يأبى على الاندثار، ولا يقبل التشويه أو التزوير.

■ استطاعت الكاتبة "منى قرشوش" أن تتخذ مسلكاً فنياً فريداً في تمثيل العنف ضمن خطاب الرواية، إذ عمّدت إلى توظيف مجموعة من التقنيات السردية التي تخدم نظام الحكي وتؤسّس لبعده الجمالي؛ حيث شكّلت تقنية التكرار وظيفة إيقاعية هامة خلقت نبضا داخليا للنص كونها ارتبطت بدلالات كبرى للعنف كالدّم والصّمت والصدمة. أمّا البناء المتشظي فاستطاع أن يخلق توترا فنياً مستمرا في نسق القراءة، أسهم في استمالة القارئ نحو

المتابعة. أما التّباطؤ الزّمني فقد وثّق المشاهد العنيفة بشكل بطيء يعكس ثقل الأحداث العنيفة وشدّة وطأتها على الشخصيات. وبالنّسبة للوصف فقد كان أداة تفصيلية شارحة للمواقف والأحداث المشحونة بتفاصيل العنف.

■ تمكنت الروائيّة "منى قرشوش" من خلال روايتها "تحت وطأة الدم" _ بما حملته من فضاء صارخ بالعنف _ أن تعكس واقع الرواية الشبابية الجزائرية، وتعبّر عن نسق فريد في الكتابة المعاصرة عند المبدعين الجزائريين الذين استطاعوا تحويل تجارب الماضي المأساوية إلى عمل فنيّ يجمع جمالية الإبداع بالرسالة الأخلاقية والواجب الوطنيّ والذاكرة التاريخية التي تخلّد التجارب الإنسانية عبر الزمن.

وفي الأخير نرجو أن نكون قد ألممنا ولو جزئيا بموضوع تحليل خطاب العنف في رواية "تحت وطأة الدّم" التي نعتقد أنها لا تزال تثير أسئلة إشكالية دون أن تقدّم إجابات نهائية حول تمثيلات العنف على مستوى بنائها السردي، إذ إنّ النّصّ الفريد هو نصّ مُتعالٍ ومُتمنّع يأبى على تقديم إجابات جاهزة، ويدعو دائما إلى التفكير والتساؤل والبحث المستمر، وهو ما يفتح الباب أمام جهود لاحقة لاستنطاق متن الرواية بغرض إضاءة خطابها المُتعالِي من جوانب أخرى توازي موضوع العنف وتكمّل دلالاته الفنيّة والجمالية.

قائمة

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم: رواية ورش عن نافع.

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

- إسماعيل بن عمر بن كثير تفسير القرآن العظيم، ج7، تح: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة (د ط) مصر، 1991.

- حسن الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، إفريقيا الشرق، ط 1، المغرب، 2014.

- عبد الله إبراهيم، السرد والاعتراف بالهوية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2011.

- عبد الله بن أحمد العلاف، العنف الأسري وآثاره على الأسرة والمجتمع، المكتبة الشاملة الذهبية (د ط) مصر، 2019.

- علال سنقوفة، المتخيل والسلطة في علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسية، منشورات الاختلاف، ط 1، الجزائر، 2000.

- ماجد الغريايوي، تحديات العنف، دار العارف للمطبوعات، ط1، لبنان، 2009.

- محمد بوعزة، تحليل النص السردي وتقنيات ومفاهيم، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، الجزائر، 2010.

- مصطفى حجازي، التخلق الاجتماعي (مدخل إلى السيكولوجيا المقهورة)، المركز الثقافي، ط1، المغرب، 2005.

- منى قرشوش، تحت وطأة الدم، خيال للنشر والترجمة، ط 1، الجزائر، 2025.

- نور الدين بن مختاري، ظاهرة العنف والتطرف من معالجة الآثار إلى معالجة الأسباب، سلسلة كتاب الأمة، ط1، قطر، 2015.

- هه تاو كريم، ظاهرة العنف الأسري، دراسة ميدانية في مدينة أربيل، مطبعة الثقافة، ط 2، العراق، 2014.

ثانيا: المصادر والمراجع المترجمة

- بيار بورديو، أسئلة في علم الاجتماع، تر: عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال، ط 1، المغرب، 1984.
- الهيمنة الذكورية، تر: سلمان قعفراني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008.
- ببير فيو، العنف والوضع الإنساني، ضمن كتاب: المجتمع والعنف، مجموعة من الاختصاصيين، تر: إلياس زحلاوي، المؤسسة الجامعية للدراسات، ط 1، لبنان، 1985.
- تيد هندية، العنف السياسي فلسفته وأصول أبعاده، تر: عيسى طنوس وآخرون، دار المسيرة، ط 2، بيروت، 1966.
- جوديت هيرمان، الصدمة والاستشفاء، تر: عزّة شبل، دار العين للنشر، ط 1، مصر، 2011.
- جون دولارد وآخرون، الإحباط والعنوان، تر: محمود عبد القادر، دار المعارف، ط 1، مصر، 1972.
- سيغموند فرويد، قلق الحضارة، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة، ط 2، لبنان، 1979.
- ما وراء مبدأ اللذة، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة، ط 2، لبنان، 1983.
- غوستاف لوبون، سيكولوجيا الجماهير، تر: هاشم صالح، دار الساق، ط 1، 1991.
- كارمل ماركس، فريدريك انغلز، البيان الشيوعي، تر: إلياس شاهين، دار التقدم، ط 1، موسكو، 1986.

- ميشيل فوكو، أركيولوجيا المعرفة، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 1986.

المراقبة والمعاقبة، تر: جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، ط 1، لبنان، 1990.

نظام الخطاب، تر: محي الدين صبحي، دار الفكر، ط 1، سوريا، 1984.

ثالثاً: المعاجم والقواميس

- إبراهيم مصطفى وآخرون، معجم الوسيط ج1، مجمع اللغة العربية، ط 2، مصر (د ت).
- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، مج3، تح: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف (د ط) مصر، 1970.
- أبو القاسم محمود بن عمر الرّمخسري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج1، دار الفكر، ط1، لبنان، 1978.
- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، ط 2، لبنان فرنسا، 2001.
- جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر (د ط) تونس، 2014.
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني (د ط)، بيروت، 1982.
- محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج1، تح: أبو الوفا نصر الهويني، دار الكتب العلمية (د ط) لبنان، 1971.

رابعاً: المجالات والدوريات

- سهيل مقدّم، من أجل استراتيجية فعّالة في مواجهة العنف الاجتماعي، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع8، مج4، جامعة وهران_الجزائر، 2012.
- عامر عبد الفتاح جود الله، سهيلة سفيان غنام، الانفعالات النفسية عند المرأة في القرآن الكريم، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، ع2، مج13، جامعة الجزائر 1_الجزائر، 2022.
- عبد الباسط عبد الله العزام، إدارة الهوية لدى المرأة الأردنية، مقاربة من منظور الوصم الاجتماعي عند غوفمان، المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية، ع3، مج17، الأردن، 2024 .

خامساً: المراجع باللغة الأجنبية

- Fred R.Vonder. Mehden, Comparative Political Violence (englewood cliffs, NJ : pentice hall)1973.
- Judith Lwis Hirman, trauma and recovery, the aftermath of violonce, from domestic abuse to political terror, basic book, New York,1997
- Haris Zellig,discours Analyse language, vol, n 1, USA,1952.
- Philippe Hamon, descriptif hachette, hachette superiur education Paris,1993.

ملحق

ملخص الرواية:

تتجاوز رواية "تحت وطأة الدّم" لمنى قرشوش كونها مجرد حكاية عائلية، لتغدو عملاً إبداعياً وتاريخياً في الوقت ذاته، يوثّق لمرحلة صعبة عاشتها الجزائر وسط مناخ مشحون بالاضطراب منذ إلغاء المسار الانتخابي، وما تلاه من أزمات خاصة بعد اغتيال الرئيس "محمد بوضياف" سنة 1992، فتستعرض الرواية كيف تحوّل هذا الصراع الكبير إلى واقع مأساوي متأزم فكّك بنية المجتمع، وأحدث شرخاً في تاريخ الجزائر بشكل عام.

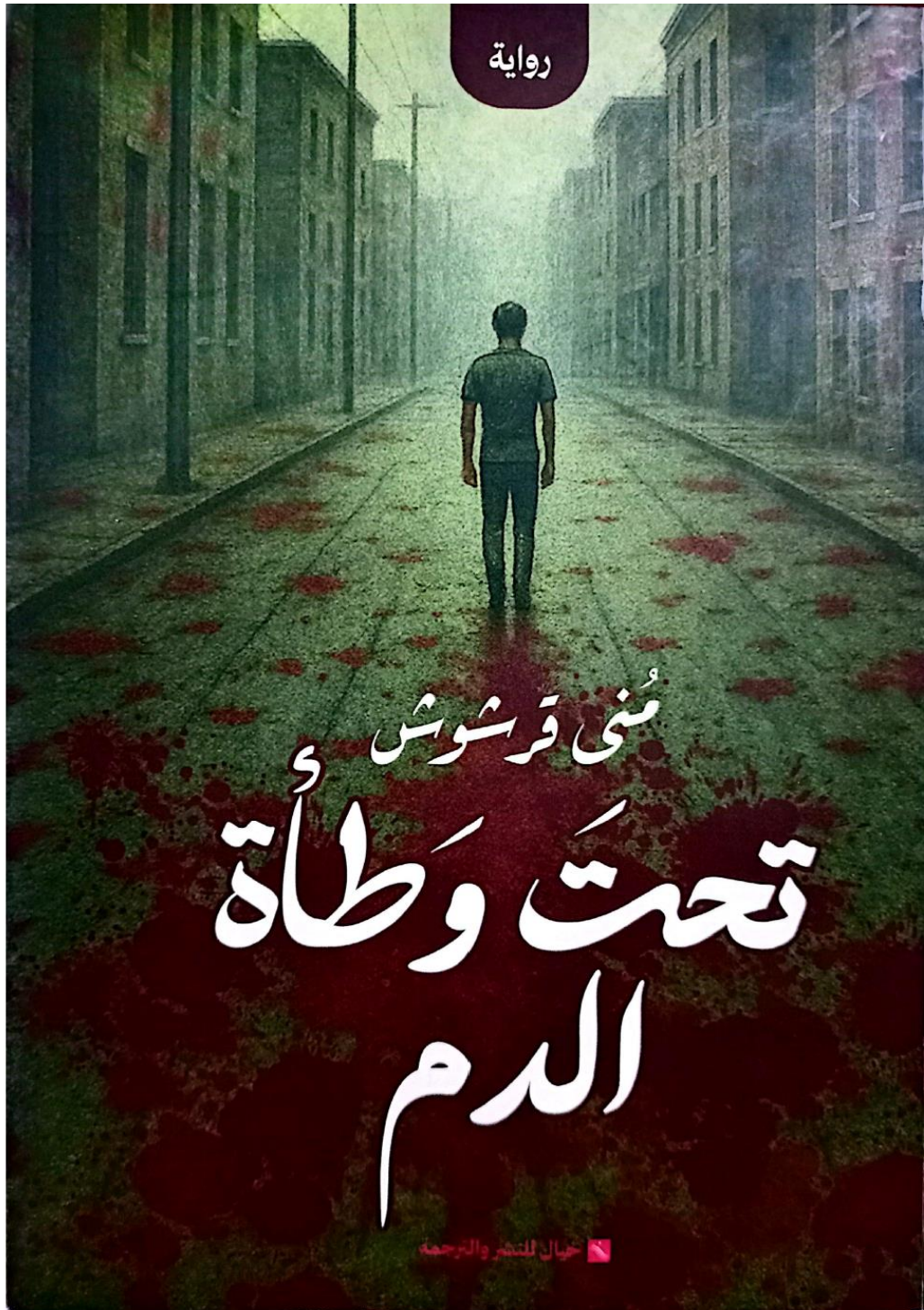
تتخذ الرواية من عائلة "جواد" أنموذجاً لأسرة جزائرية وجدت نفسها عالقة في سنوات الحرب الأهلية التي سجّلها تاريخ الجزائر في التسعينيات؛ حيث كانت تعيش حصاراً خانقاً بسبب الجماعات المسلحة التي تستهدف أمن الدولة ومنتسبيها _ لأنّ والد جواد كان يعمل في سلك الأمن _ والتهديدات المباشرة التي تترصد وجودها. يأخذنا "جواد" بطل الرواية في رحلة استرجاعية مؤلمة خلفها الماضي المرير الذي كبر في ظلّه، وهو الآن أب يسعى جاهدا لفهم ملابسات الصدمات النفسية التي عاشها في طفولته ومراهقته.

تبدأ أحداث الرواية بهدوء خادع يقطعه وصول رسالة غامضة من الجماعات المسلحة، تُنذر باقتراب كارثة مُحقّقة وسط دوامة من الدّعر والخوف، ليجد "جواد" نفسه شاهداً على حادثة مأساوية مروعة اغتيل فيها أخوه العائد من الخدمة الوطنية. ومن هنا تبدأ رحلة الفقد والشتات؛ حيث تلاشى عنده الشعور بالأمان، ليحلّ محلّه رعب وجوديّ غير متوقّع، ولم يتوقّف المشهد عند هذا الحد فقد تلا الحادثة هجوم دام شنته مجموعة من المثلثين على منزل العائلة ليتصدى له الأب والأم بشجاعة فائقة مضحين بحياتهما لحماية الأبناء، بينما اندفع "جواد" في لحظة يأس وبأمر من أبيه نحو مركز

الشَّـرْطَة طلبا للنجدة، لكنّه حين عاد كان القدر قد سبق خطاه، فقد وجد أخته فاتن وأمه جثتين هامدتين، بينما نُقل والده المصاب إلى المستشفى ليلفظ أنفاسه الأخيرة مُخلفًا وراءه حزنا غائرا وألما لا يندمل.

وفي خضمّ هذا الانهيار وجد "جواد" بصيصا من الأمل في أخته الصّغرى "هبة" التي أصيبت في تلك اللّيلة أيضا، فكانت هي أنيسه الوحيد ورمز الصّمود الذي زرع في نفسه القدرة على الاستمرار، بالرغم من أنّ التّجربة كانت قاسية جدّا عليها؛ حيث عانت من صدمات نفسيّة حادّة، بلغت بها إلى التّفكير في إنهاء حياتها هربا من وطأة الألم.

وفي الأخير تُسلّط الكاتبة الصّوء على قدرة "جواد" على التّعافي جزئيا، حيث استطاع تأسيس عائلته الخاصّة، وقد غمرته فرحة عارمة حين رُزق بمولود أسماه باسم والده الراحل، إلّا أنّ النّدوب الغائرة في ذاكرته ترفض الاندثار، فما يزال رغم استقراره عاجزا عن نسيان تلك اللّيلة المشؤومة التي سرقت منه أغلى ما يملك، وظلّت ذكراها تُطاردهدوءه كطيف لا يغيب.



Scanné avec CamScanner

5.....	مقدمة
10.....	الفصل الأول: التّأطير النظري للمفاهيم
11.....	المبحث الأول: في مفهوم الخطاب
11.....	1. المفهوم اللغوي
14.....	2. المفهوم الاصطلاحي
17.....	المبحث الثاني: العنف وتداعيات المصطلح
17.....	1. العنف في اللغة
19.....	2. العنف في الاصطلاح
21.....	3. العنف وفق المنظور النفسي والاجتماعي
27.....	المبحث الثالث: أشكال العنف
28.....	1. العنف الجسدي
28.....	2. العنف السياسي
30.....	3. العنف الاجتماعي
31.....	4. العنف النفسي
32.....	5. العنف الرمزي
36.....	الفصل الثاني: تجليات العنف في رواية تحت وطأة الدّم
37.....	المبحث الأول: تشكيلات العنف
37.....	1. العنف الجسدي
42.....	2. العنف السياسي
46.....	3. العنف النفسي
49.....	4. العنف الاجتماعي
51.....	5. العنف الرمزي
55.....	المبحث الثاني: الأبعاد النفسية والاجتماعية لخطاب العنف

55.....	1. الأبعاد النفسية.....
62.....	2. الأبعاد الاجتماعية.....
67.....	المبحث الثالث: التقنيات السردية لتمثيل العنف.....
68.....	1. السرد المتشظي.....
70.....	2. التباطؤ الزمني.....
71.....	3. السرد المتكرر.....
72.....	4. الوصف.....
77.....	خاتمة.....
82.....	قائمة المصادر والمراجع.....
86.....	المحق.....
88.....	فهرس الموضوعات.....